مقـالات ٢٠٢١

نشرت في جريدة الأهرام المصرية

أ.د. محمد الخشت

أستاذ الفلسفة ورئيس جامعة االقاهرة

www.elkhosht.com

الفهرس

يناير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١) ---------- ٣ يناير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢) ---------- ٥ يناير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٣) ---------- ١٧ يناير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٤) ---------- ٢٤ يناير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٥) ---------- ٣١ يناير ٢٠٢١

فبراير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٦) ---------- ٧ فبراير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٧) ---------- ١٤ فبراير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٨) ---------- ٢١ فبراير ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٩) ---------- ٢٨ فبراير ٢٠٢١

مارس ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٠) ---------- ٧ مارس ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١١) ---------- ١٤ مارس ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٢) ---------- ٢١ مارس ٢٠٢١

ابريل ٢٠٢١

مصر والصين.. الشمس التى لا تأفل حتى تعود! ---------- ١١ أبريل ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٣) ---------- ١٨ أبريل ٢٠٢١

مايو ٢٠٢١

جامعة القاهرة وعصر الثورة الصناعية الرابعة ---------- ٣١ مايو ٢٠٢١

يونيو ٢٠٢١

جامعة القاهرة تجدد نفسها ---------- ٦ يونيو ٢٠٢١

إعادة بناء الإنسان فى الجمهورية الجديدة ---------- ٢٧ يونيو ٢٠٢١

يوليو ٢٠٢١

الجامعة والأمن القومى الشامل ---------- ١١ يوليو ٢٠٢١

التعليم والفجوة المعرفية ---------- ٢٥ يوليو ٢٠٢١

أغسطس ٢٠٢١

ربط التعليم بالاستثمار ---------- ١٥ أغسطس ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٤) ---------- ٢٩ أغسطس ٢٠٢١

ديسمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٥) ---------- ٥ سبتمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٦) ---------- ١٢ سبتمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٧) ---------- ١٩ سبتمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٨) ---------- ٢٦ سبتمبر ٢٠٢١

اكتوبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٩) ---------- ٣ أكتوبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٠) ---------- ١٠ أكتوبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢١) ---------- ١٧ أكتوبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٢) ---------- ٢٢ أكتوبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٣) ---------- ٣١ أكتوبر ٢٠٢١

نوفمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٤) ---------- ٧ نوفمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٥) ---------- ١٤ نوفمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٦) ---------- ٢١ نوفمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢٧) ---------- ٢٨ نوفمبر ٢٠٢١

سبتمبر ٢٠٢١

المواطنة والجمهورية الجديدة ---------- ٥ ديسمبر ٢٠٢١

هل مفهوم الوطن له أصل عربى؟ ---------- ١٢ ديسمبر ٢٠٢١

الرئيس والخطاب الدينى «١» ---------- ١٩ ديسمبر ٢٠٢١

الرئيس والخطاب الدينى «٢» ---------- ٢٦ ديسمبر ٢٠٢١

ضد التصور الأسطوري للمرأة (١)

٣ يناير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

رأينا عبر خمس عشر مقالا حجم الأساطير في الأديان المختلفة عن الشيطان، وامتدادات تلك الأساطير في الثقافة التراثية الشائعة عند قطاعات من المسلمين بالمخالفة للعقائد النقية الواردة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة المتواترة، كما رأينا كيف أن الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والمكذوبة والحكايات الشعبية لعبت دورا كبيرا في كثير من كتب التراث وتجاورت مع العقائد الصحيحة.

وكان بالإمكان أن تتضاعف تلك السلسلة لمزيد من الأمثلة من كتب الخطاب الديني التقليدي على مخالفة الوحي النقي. وأتصور أنه ربما يكون ما أوردناه من أمثلة من كتب التيار الأشعري كافيا للتدليل على صحة ما نقوله من أن الخطاب الديني التقليدي في معتقداته عن الشيطان قد ابتعد في جانب منها عن القرآن الكريم والسنة المتواترة، واختلطت فيه المعتقدات الأصيلة بالمعتقدات التي ليس ليها أصل من الوحي الكريم.

ومن أسف فإن الخطاب الديني البشري التقليدي يخالف الوحي الكريم، وينسب للرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقله وما لم يفعله، ومن ثم فإن التراث به الإيجابي وبه أيضا السلبي، والغريب أن قطاعات منا تصر على السير بكل عزيمة وراء السلبي، وتدافع عنه دفاعا مجيدا! إن المزايدة على الاحتفاظ بالتراث كله دون تمييز بين الإيجابي والسلبي، مغالطة كبرى، ودغدغة لمشاعر الغوغاء، واستدعاء لكل عصبية الألتراس، ما الفرق بين المهللين لهم وبين تهليل الألتراس في مباراة مفتعلة!.

مهما يكن من أمر، فإنه يمكن بداية سلسلة جديدة حول تصور آخر من التصورات الأسطورية التي لا تزال تحكم رؤيتنا بالمخالفة للوحي الكريم. وليكن تصورنا للمرأة؛ لأنه تصور متشابك مع تصورنا عن الشيطان! فمن أهم الملاحظات التي يمكن أن نخرج بها من السلسلة السابقة أن تلك الثقافة الأسطورية عن الشيطان اقترنت بتصور أسطوري عن المرأة؛ حيث تظهر المرأة لاعبا رئيسا على مسرح الشيطان!.

ولعل نص الغزالي الأخير من كتاب (إحياء علوم الدين) الذي عرضناه في المقال السابق يمثل أكبر مثال على ما نقوله، ويعد جسرا بين مقالات (ضد التصور الأسطوري للشيطان) ومقالات (ضد التصور الأسطوري للمرأة)، فالتصوران متشابكان تشابك بيتين للعنكبوت. وقد بدأنا في ذلك المقال ببيان حجم الأسطورة في تصور الغزالي، ونتابع في هذا المقال الذي نبدأ به سلسلة جديدة بقية التعليق على ذلك النص، والذي بدأ بالشيطان وانتهى بالمرأة كبطلين في مسرحية الشر! أو بلغة فن السينما: الشيطان هو البطل والمرأة هي البطل المساعد!

يستشهد الغزالي بكل بساطة على تصوره للمرأة بحديث يوجد بإسناده جهالة، أي بحديث يوجد بسنده مشكلة حقيقية تمنع التصديق بأن الرسول صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قال هذا القول، ومع ذلك نسب إلى الرسول صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، أنه قال :«النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال».والحبائل جمع حِبالة بالكسر، وهي المصيدة المصنوعة من حبال يصاد ويُؤخذ بها الصّيد، وقال الحافظ العراقي: أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث خالد بن زيد الجهني بإسناد فيه جهالة. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة. وانظر المقاصد الحسنة للسخاوي بتحقيقي، وكشف الخفاء للعجلوني، ونصب الراية للزيلعي، ومسند الشهاب، والمغازي للواقدي، ودلائل النبوة للبيهقي، والمصنف لابن أبي شيبة، والبيان والتبيين للجاحظ، والدر المنثور للسيوطي.

والسؤال كيف يروج الغزالي في كتاب (إحياء علوم الدين) لحديث يوجد بإسناده جهالة، حديث لم يثبت أن النبي قاله، والخطورة أنه ليس قولا عاديا في مسألة جزئية، بل في حكم عام يشكل ويكون تصورا عاما للمرأة، وهو حكم خطير لأنه يشكل نظرة متدنية للمرأة ويجعلها موضع التحقير وفي مربع واحد مع الشيطان! هكذا مرة واحد يحكم على النساء (أمي وأمك، وابنتي وابنتك، وأختي وأختك، ومدرستي ومدرستك، وعمتي وعمتك، وخالتي وخالتك...)، أنهن حبائل الشيطان، إنهن أدوات الشيطان! ويجزم بأنه «لولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال»، فهل الشهوة هي الرابط الوحيد بين الرجل والمرأة؟ هل يمكن اختزال العلاقات الإنسانية المتشعبة بينهما في علاقة جسدين؟ هل كان ما يربط الرسول بخديجة هو رابط جسدي فقط، أم أيضا روابط إنسانية متنوعة من طراز رفيع؟ هل كان يربط بين الرسول وأسماء بنت أبي بكر أي رابط سوى دعوة الحق؟ ألم يكن لها دور مفصلي في الانتقال من مربع الانحصار والوشْك والإيشاك على انتهاء الدعوة إلى مربع الانطلاق والانتصار؟ ألم يقل الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة الروم: آية٢١).

ألم يحتف القرآن بامرأة عمران الكريمة وابنتها الطاهرة مريم، (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران: ٣٧).

أليست المرأة جزءا من الرجل عند مبدأ الخليقة البشرية، أليس كل الرجال جزءا من النساء أمهاتهن، وكل النساء جزء من الرجال أبائهن، ألم يجزم القرآن بأن بعضنا من بعض، (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران: ١٩٥).

إن التصور العام الذي يطرحه القرآن لا يوجد فيه أي نص على حكم عام سلبي على النساء كنوع، بل إن الأحكام العامة التي يطلقها يشترك فيها الرجال والنساء كجنس بشري واحد، (بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ). ثم يأتي الغزالي - رحمه الله - وغيره بحديث في إسناده جهالة ويحكم عليهن: (النساء حبائل الشيطان)! وهذا الحديث المنسوب بهذا السند المتهاوي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم متعارض بكل شدة مع المتن القرآن، بل ومع الأحاديث الصحيحة الثابتة عن الرسول. فهو حديث مردود سندا ومتنا، لكن نفرا من قادة الخطاب الديني التقليدي يستشهدون به ضد المرأة. ألسنا فعلا بحاجة إلى خطاب ديني جديد يرجع بنا إلى الوحي الكريم قبل أن تمتد إلى تفسيره ثقافات رجعية حملته بأساطير وموروثات اجتماعية جاهلية؟!.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٢)

١٠ يناير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

نتابع بالتحليل فى هذا المقال النص السابق من كتاب «إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالي، والذى أنهينا به سلسلة مقالات «ضد التصور الأسطورى للشيطان» وبدأنا به سلسلة «ضد التصور الأسطورى للمرأة»، لأنه نص يعد جسرا بين السلستين ولا نزال فى أجوائه حتى الآن سواء فى هذه المقالات أو فى العقل الجمعي، ولأنه نص نموذجى دال على موقف الخطاب الدينى التقليدى من المرأة كلاعب رئيس على مسرح الشيطان، وليس مجرد نص عابر. وليس أبوحامد الغزالى الملقب بحجة الإسلام مجرد حالة واحدة منفردة، بل هو يمثل نمطا فى التفكير والاستدلال لتيار دينى يتحكم فى جوانب كثيرة من الخطاب الدينى التقليدي، ولا تزال أفكاره تعمل فى ثقافة ورؤية كثير من المسلمين للعالم والإنسان والله سبحانه، بعيدا عن المقطوع به من الوحى الكريم.

فى هذا النص يورد الغزالى حوارا دار بين موسى عليه السلام وإبليس، وطبعا المرأة حاضرة فيه، دون أى سند من وحى كريم، والحوار نفسه يكشف عن تناقض ضخم حيث تأتى نصائح إبليس وكأنها نصائح نبي! انظر ماذا يقول إبليس فى هذه الرواية الخرافية المتناقضة التى يرويها أبو الغزالى دون أى مصدر، فيقول: رُوى أن موسى عليه السلام كان جالساً فى بعض مجالسه إذا أقبل إليه إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال: السلام عليك يا موسي، فقال له موسي: من أنت؟ فقال: أنا إبليس. فقال: لا حياك الله، ما جاء بك؟ قال: جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه. قال: فما الذى رأيت عليك؟ قال: برنس أختطف به قلوب بنى آدم. قال: فما الذى إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه، وأحذرك ثلاثاً لا تخل بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها وأفتنها به، ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها، فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول علم موسى ما يحذر به بنى آدم.

هكذا بكل بساطة يأتى الغزالى برواية مجهولة تخالف كل المعتقدات الثابتة عن إبليس، حيث يتحول إبليس إلى ناصح يدعو إلى عدم الإعجاب بالنفس وعدم الغرور وعدم نسيان الذنوب، هكذا بكل بساطة ينصح إبليس بعدم الاختلاء بين الرجل والمرأة، وينصح بالوفاء بعهد الله، وينصح بإنفاذ الصدقة! فهل تاب إبليس؟ هل تراجع عن معركته الأزلية ضد الإنسان؟

انظر، عزيزى القارئ، كيف يتساهل بعض علماء الخطاب الدينى التقليدى فى عد رواية مجهولة مبينة لجانب من الدين، فما سند هذه الرواية؟ وما مدى صحتها؟ وهل الدين يؤخذ من حكايات مرسلة؟ ومَنْ الذى سمع الحوار بين موسى عليه السلام وإبليس؟ وإذا كان موسى نفسه حكى ذلك فأين الدليل على أن موسى قال ذلك؟

وإذا تجاوزنا سند الرواية، فهل هذا الكلام متسق، أم أنه متناقض تماما؟ ألا يوجد تناقض شديد بين هذا النص والقرآن الكريم فى حديثه عن إبليس؟ ألا توجد تناقضات داخل الرواية نفسها التى يوردها أبو حامد الغزالي؟ ألم يلاحظ الغزالى والمصدقون لهذه الرواية أنها تتعارض مع مفهوم الشيطان نفسه، ومع دور إبليس فى إغواء البشر؟ فجأة تحول إبليس فى هذه الرواية إلى واعظ يعظ بالحق ودون التفافٍ أو مكر، فجأة يتنحى إبليس عن عرينه ويتراجع أمام موسى عليه السلام فى حين أنه لم يتراجع أمام الله سبحانه وتعالى! إنه عالَم النظام المعرفى اللامعقول الذى يسيطر على الخطاب الدينى التقليدى، عالم النظام المعرفى الذى يجمع بين التناقضات والمتناقضات!

ومرة أخرى تعاود المرأة الظهور على مسرح الشيطان، حيث يستشهد الغزالى بقول مجهول على أن «المرأة نصف جند الشيطان»! يقول الغزالي: «وقال بعضهم: إن الشيطان يقول للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمى الذى أرمى به فلا أخطئ، وأنت موضع سرى، وأنت رسولى فى حاجتى، فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب». مرة أخرى يروى الغزالى قولا يدخل فى باب العقائد دون سند من وحى كريم ودون مصدر ودون اسم القائل، وكأن هناك مَن يروى عن الشيطان ذلك المجهول من عالم الغيب!

إنه عالم النظام المعرفى فى الخطاب الدينى التقليدى الذى يتجرأ على الغيبيات ويروى عنها بلا سند صحيح متواتر، ويتجرأ على مفاتيح الغيب دون برهان يقينى من وحى كريم، «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ» (الأنعام: ٥٩).

فما هو مصدر الغزالى فى كل تلك الروايات عن الغيب، فالله وحده هو من يملك الحقيقة الدينية المطلقة، ولا يكشف عن شئ منها للبشر إلا عبر وسيلة يقينية من وحى كريم.

ومن أسف فإن مرجعيات الخطاب الدينى التقليدى، ومنها «إحياء علوم الدين» لأبى حامد الغزالى، تشكل منظومة معرفية مضطربة تحكم طريقة التفكير بعيدا عن الواقع، وبعيدا عن الوحى الكريم، وبعيدا عن العقل والمعقول! وتتجاور فيها ـ كما قلنا مرارا وتكرارا ـ الأساطير الباطلة والعقائد الصحيحة جنبا إلى جنب، فى حين يجب الاكتفاء فقط فى تحديد حدود الدين بما جاء فى القرآن الكريم مفسرا بالسنة الصحيحة المتواترة. وأنصار الخطاب الدينى التقليدى يزعمون ذلك، لكنهم عند التنفيذ يفعلون شيئا آخر ويملؤون كتبهم بالروايات الضعيفة والموضوعة والمرسلة وبالاستنتاجات العقائدية فيما لا مجال فيه للاستنتاج!

وهنا نكرر التأكيد على أن أحد مقاصد تأسيس الخطاب الدينى الجديد يتمثل فى العودة إلى المنابع الصافية، وتحرير الدين الأصلى مما علق به عبر التاريخ من أساطير وإسرائيليات مكذوبة وآراء استنتاجية تجاوز حدود القرآن والسنة الصحيحة، وتخليص الدين مما أضيف له من البشر؛ فالدين اكتمل عندما نزل قوله تعالي: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، هنا اكتمل الدين بإعلان إلهي، وهذه هى كلمته الأخيرة، وهنا انغلقت «دائرة الكلمات المقدسة». وإذا نجحنا فى العودة إلى المنابع الصافية والتخلص من الخرافات والأقوال البشرية التى تضفى على نفسها قداسة مزعومة، نكون قد استطعنا الدخول إلى عصر دينى جديد.

ضد التصور الأسطوري للمرأة (٣)

١٧ يناير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

في الخطاب الديني التقليدي يشيع بين قطاعات من المسلمين أن حواء هي سبب خروج آدم من الجنة! وبالتالي فهذا هو الأساس الديني والميتافيزيقي للزعم بأن المرأة وراء كل شر يلحق بالرجل!

ترى هل هذه حقيقة أم أنها لا تعدو أن تكون أمرا ليس له أصل من الوحي الكريم والسنة المتواترة؟

في الحقيقة أن القرآن الكريم لم يشر إلى أن حواء هي سبب خروج آدم من الجنة، بل عدّ الشيطان بوسوسته هو المسئول الأول عن إغوائهما، وفي المعتقد الصحيح الذي دلت عليه نصوص الوحي الكريم أن آدم وحواء يتحملان المسئولية معا في الاستجابة لوسوسة الشيطان لهما، وحسب النصوص القرآنية ليس لحواء أي دور وسط بين الشيطان وآدم؛ حيث إن الإغواء الشيطاني قد حدث لهما معا، (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) البقرة: ٣٥-٣٦. (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) الأعراف: ١٩-٢٧ .

واضح إذن أن القرآن لم يحمّل حواء مسئولية إغواء آدم، ولم يعدها ذات أي دور في تشجيعه على الاستجابة لإغواء الشيطان.

ومما يدعو للدهشة، أن تلك الفكرة الشائعة في الخطاب الديني التقليدي، والتي خالفها القرآن الكريم، هي الشائعة بين عوام المسلمين؛ حيث إنهم يعتقدون عن جهل بالقرآن أنها حقيقة قرآنية! ومن أسف فإن بعض المفسرين الذين يعتمدون على الإسرائيليات يفسرون القرآن انطلاقا من حكايات ومرويات ليس لها أصل من الوحي ولا من السنة المتواترة! مع أن الرواية القرآنية مختلفة بوضوح مع تلك المرويات حيث إنها تنص بوضوح على تحميل مسئولية الخطيئة لكل من آدم وحواء بالدرجة نفسها. لكن تلك المرويات التي تعج بها بعض كتب التراث تعد حواء ذات مسئولية مشتركة مع الحية في إغواء آدم، علما بأن الحية لا ذكر لها في الرواية القرآنية. وهذا يعكس طبيعة النظرة الدونية للمرأة بشكل عام، على خلاف نظرة الوحي الكريم المنصفة لها فالقرآن الكريم لا يشير إلى هذا نهائيا، ويجزم أن مخالفة الأمر الإلهي مسئولية مشتركة بين آدم وحواء (انظر كتابنا: الشائعات وكلام الناس).

وحتى يكون ما نطرحه من أفكار عن الخطاب الديني التقليدي بهذا الصدد مؤسسا على أدلة قاطعة، فلابد من إيراد نماذج من المرويات التي يطرحها الخطاب الديني التقليدي، لنرى كيف أنه يتحامل على حواء، يروي ابن كثير في تفسيره المسمى (تفسير القرآن العظيم) (٣/ ٣٩٩) عن ابن جرير قال: حدّثنا القاسم، حدّثنا الحسين، حدّثنا عبّاد بن العوّام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: لمّا أكل آدم من الشّجرة قيل له: لم أكلت من الشّجرة الّتي نهيتك عنها. قال: حوّاء. أمرتني. قال: فإنّي قد أعقبتها ألا تحمل إلّا كرها، ولا تضع إلّا كرها. قال: فرنّت عند ذلك حوّاء. فقيل لها: الرّنّة عليك وعلى ولدك (تفسير الطبري، جامع البيان، ٣٥٦/١٢).

ويتوسع ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٦ ، تحقيق شاكر)، في رواية تلك المرويات المخالفة للقرآن، لكنه يقدمها على أنها تفسير له! حيث يحكي قائلا: «عن وهب بن منبه في ذلك ما حدثنا به الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق، قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب، قال: سمعت وهب بن منبه، يقول: لما أسكن الله آدم وذريته - أو زوجته - الشك من أبي جعفر: وهو في أصل كتابه «وذريته» - ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعّبٌ بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته. فلما أراد إبليس أن يستزلّهما دخل في جوف الحية، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بُخْتِيّة، من أحسن دابة خلقها الله - فلما دخلت الحية الجنة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة! ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة! ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأكل منها آدم، فبدت لهما سوءاتهما. فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربّه يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هنا يا رب ! قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي منك يا رب. قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحوّل ثمرها شوكا. قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرةٌ كان أفضل من الطّلح والسّدر، ثم قال: يا حواء، أنت التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملا إلا حملته كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارا. وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرّ عبدي، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدخ رأسك. قال: قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء».

هذه رواية من عشرات- إن لم يكن من مئات- الروايات الموضوعة التي جاءت في بعض كتب تفسير القرآن عند علماء كبار من وزن الطبري وابن كثير في التراث، والتي أدخلت على المعتقد الإسلامي ما ليس منه، وأفسدت تصورات المسلمين عن المرأة، بل أفسدت تصوراتهم عن الله سبحانه.

وهنا نعيد ونكرر، إننا لا نهون من التراث كله ككتلة واحدة، ولا نقدس التراث أيضا ككتلة واحدة. لسنا مع هؤلاء الذين يهينون ويهونون من التراث، ولا مع أولئك الذين يقدسون التراث. المقدس فقط هو الوحي الكريم. نحن وسط بين جميع المتناقضين، نقول: إن التراث به ما هو إيجابي وعقلاني، وبه ما هو رجعي وأسطوري. التراث منجز بشري قابل للصواب والخطأ، ويجب أن نحرر ديننا من كل ما علق بأهدابه من تصورات فاسدة نشأت بسبب مرويات ليس لها مستند من الوحي الكريم والسنة المتواترة. إننا ندافع عن القرآن الكريم والسنة المتواترة، بينما يدافع البعض عن فرق ومذاهب!

ضد التصور الأسطوري للمرأة (٤)

٢٤ يناير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

في الخطاب الديني التقليدي يشيع بين قطاعات من المسلمين أن حواء هي سبب خروج آدم من الجنة! وبالتالي فهذا هو الأساس الديني والميتافيزيقي للزعم بأن المرأة وراء كل شر يلحق بالرجل!

ترى هل هذه حقيقة أم أنها لا تعدو أن تكون أمرا ليس له أصل من الوحي الكريم والسنة المتواترة؟

في الحقيقة أن القرآن الكريم لم يشر إلى أن حواء هي سبب خروج آدم من الجنة، بل عدّ الشيطان بوسوسته هو المسئول الأول عن إغوائهما، وفي المعتقد الصحيح الذي دلت عليه نصوص الوحي الكريم أن آدم وحواء يتحملان المسئولية معا في الاستجابة لوسوسة الشيطان لهما، وحسب النصوص القرآنية ليس لحواء أي دور وسط بين الشيطان وآدم؛ حيث إن الإغواء الشيطاني قد حدث لهما معا، (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) البقرة: ٣٥-٣٦. (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) الأعراف: ١٩-٢٧ .

واضح إذن أن القرآن لم يحمّل حواء مسئولية إغواء آدم، ولم يعدها ذات أي دور في تشجيعه على الاستجابة لإغواء الشيطان.

ومما يدعو للدهشة، أن تلك الفكرة الشائعة في الخطاب الديني التقليدي، والتي خالفها القرآن الكريم، هي الشائعة بين عوام المسلمين؛ حيث إنهم يعتقدون عن جهل بالقرآن أنها حقيقة قرآنية! ومن أسف فإن بعض المفسرين الذين يعتمدون على الإسرائيليات يفسرون القرآن انطلاقا من حكايات ومرويات ليس لها أصل من الوحي ولا من السنة المتواترة! مع أن الرواية القرآنية مختلفة بوضوح مع تلك المرويات حيث إنها تنص بوضوح على تحميل مسئولية الخطيئة لكل من آدم وحواء بالدرجة نفسها. لكن تلك المرويات التي تعج بها بعض كتب التراث تعد حواء ذات مسئولية مشتركة مع الحية في إغواء آدم، علما بأن الحية لا ذكر لها في الرواية القرآنية. وهذا يعكس طبيعة النظرة الدونية للمرأة بشكل عام، على خلاف نظرة الوحي الكريم المنصفة لها فالقرآن الكريم لا يشير إلى هذا نهائيا، ويجزم أن مخالفة الأمر الإلهي مسئولية مشتركة بين آدم وحواء (انظر كتابنا: الشائعات وكلام الناس).

وحتى يكون ما نطرحه من أفكار عن الخطاب الديني التقليدي بهذا الصدد مؤسسا على أدلة قاطعة، فلابد من إيراد نماذج من المرويات التي يطرحها الخطاب الديني التقليدي، لنرى كيف أنه يتحامل على حواء، يروي ابن كثير في تفسيره المسمى (تفسير القرآن العظيم) (٣/ ٣٩٩) عن ابن جرير قال: حدّثنا القاسم، حدّثنا الحسين، حدّثنا عبّاد بن العوّام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: لمّا أكل آدم من الشّجرة قيل له: لم أكلت من الشّجرة الّتي نهيتك عنها. قال: حوّاء. أمرتني. قال: فإنّي قد أعقبتها ألا تحمل إلّا كرها، ولا تضع إلّا كرها. قال: فرنّت عند ذلك حوّاء. فقيل لها: الرّنّة عليك وعلى ولدك (تفسير الطبري، جامع البيان، ٣٥٦/١٢).

ويتوسع ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ٥٢٦ ، تحقيق شاكر)، في رواية تلك المرويات المخالفة للقرآن، لكنه يقدمها على أنها تفسير له! حيث يحكي قائلا: «عن وهب بن منبه في ذلك ما حدثنا به الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق، قال: أخبرنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب، قال: سمعت وهب بن منبه، يقول: لما أسكن الله آدم وذريته - أو زوجته - الشك من أبي جعفر: وهو في أصل كتابه «وذريته» - ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعّبٌ بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم، وهي الثمرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته. فلما أراد إبليس أن يستزلّهما دخل في جوف الحية، وكانت للحية أربع قوائم كأنها بُخْتِيّة، من أحسن دابة خلقها الله - فلما دخلت الحية الجنة، خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حواء، فقال: انظري إلى هذه الشجرة! ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت بها إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة! ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأكل منها آدم، فبدت لهما سوءاتهما. فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربّه يا آدم أين أنت؟ قال: أنا هنا يا رب ! قال: ألا تخرج؟ قال: أستحيي منك يا رب. قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحوّل ثمرها شوكا. قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرةٌ كان أفضل من الطّلح والسّدر، ثم قال: يا حواء، أنت التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملا إلا حملته كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارا. وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرّ عبدي، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدخ رأسك. قال: قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟ قال: يفعل الله ما يشاء».

هذه رواية من عشرات- إن لم يكن من مئات- الروايات الموضوعة التي جاءت في بعض كتب تفسير القرآن عند علماء كبار من وزن الطبري وابن كثير في التراث، والتي أدخلت على المعتقد الإسلامي ما ليس منه، وأفسدت تصورات المسلمين عن المرأة، بل أفسدت تصوراتهم عن الله سبحانه.

وهنا نعيد ونكرر، إننا لا نهون من التراث كله ككتلة واحدة، ولا نقدس التراث أيضا ككتلة واحدة. لسنا مع هؤلاء الذين يهينون ويهونون من التراث، ولا مع أولئك الذين يقدسون التراث. المقدس فقط هو الوحي الكريم. نحن وسط بين جميع المتناقضين، نقول: إن التراث به ما هو إيجابي وعقلاني، وبه ما هو رجعي وأسطوري. التراث منجز بشري قابل للصواب والخطأ، ويجب أن نحرر ديننا من كل ما علق بأهدابه من تصورات فاسدة نشأت بسبب مرويات ليس لها مستند من الوحي الكريم والسنة المتواترة. إننا ندافع عن القرآن الكريم والسنة المتواترة، بينما يدافع البعض عن فرق ومذاهب!

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٥)

٣١ يناير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

من أهم ضوابط تفسير الوحى الكريم هو تفسير الكتاب بالكتاب، أى تفسير القرآن بالقرآن، فالقرآن كتاب مبين يوضح بعضه بعضا. وأيضا من أهم الضوابط: تفسير القرآن بالسنة المتواترة والصحيحة، فالقرآن نفسه قد جعل من وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم التبيين، «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل: ٤٤). ولتفسير القرآن بالسنة شروط واعتبارات متعددة.

ومن أسف، فإن هذه الضوابط يتم التغاضى عنها فى كثير من الأحيان، وعلى سبيل المثال يتم غالبا تجاهلها فى تفسير سبب وطبيعة كون المرأة من الشهوات فى إطار الرؤية الأسطورية للمرأة، كما يتم اعتبار الشهوات شرا مطلقا أيضا فى إطار الرؤية الأسطورية للشهوات.

وأنا أتصور أن تلك الشهوات ليست فى حد ذاتها شرا مطلقا، وليست فى حد ذاتها خيرا مطلقا، بل هى فى الوحى الكريم نعمة إلهية، مثل سائر النعم، يمكن توظيفها فى الخير ويمكن توظيفها فى الشر. وأيضا فى السنة الصحيحة، قال صلى الله عليه وسلم: «حُبب إلى من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» (رواه أحمد والنسائى والبيهقى والطبرانى وأبو يعلى وعبد الرزاق والحاكم وغيرهم وهو صحيح). والشهوات ليس المقصود بها شهوة المرأة فقط، بل شهوات كثيرة مثل البنين وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ، وأيضا شهوة المعرفة وشهوة الطعام والشراب واللعب واللهو ...إلى آخره. وأيضا ليست شهوة النساء محصورة فى الرغبة الجنسية منفردة، بل أيضا لإنجاب الذرية وللسكينة والصحبة الطيبة ومشاركة هموم الحياة.

ومن الواضح أن أيا من هذه الشهوات ليس شرا فى ذاتها، فحب الذرية ليس شرا فى ذاته، وحب الخيل المسومة والذهب والفضة ليس شرا فى ذاته. وبالمثل ليست الشهوات من النساء شرا فى ذاتها، بل العبرة تكمن فى كيفية التعامل معها وتوظيفها؛ فالمرأة الصالحة نعمة، لكن المرأة الفاسدة نقمة. والجنس فى الإطار المشروع نعمة، سواء لبناء الأسرة ومواصلة الحياة عبر الأجيال واستمرار البشرية أو حتى لمجرد الاستمتاع والسكينة، فهى متع مشروعة، بل نعم إلهية. لكن الجنس المنحرف فى أطر غير شرعية هو شر واتباع للشهوات دون ضوابط، ويترتب عليه مشاكل وأضرار فردية واجتماعية عديدة. وقل مثل ذلك فى بقية الشهوات التى ذكرتها الآية الكريمة، وغيرها من الشهوات الأخرى.

وعلى فكرة، فإن أغلب المخلوقات لها وجهان: وجه للشر، ووجه للخير. وأغلب النعم لها وجهان: وجه للشر، ووجه للخير. وعلى سبيل المثال، فإن النار نعمة إلهية، لكن لها وجهان: وجه للشر، ووجه للخير. فإذا استخدمت النار من أجل الحرق والتدمير والإهلاك فهى شر، وإذا استخدمتها من أجل التدفئة أو طهى الطعام أو الصناعة فهى خير. وقل مثل ذلك فى أى شيء.

فى هذا الإطار يجب فهم الآية الكريمة : «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » (آل عمران: ١٤).

وقد اختلف المفسرون فى تحديد مَنْ هو المزين: هل هو الله تعالى أم الشيطان؟ قال النسفى :«المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء كقوله «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زينة لها لنبلوهم»، دليله قراءة مجاهد زَيَن للناس على تسمية الفاعل، وعن الحسن: الشيطان» (مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ٢٤٠).

وفى تصورى أن هذا تفسير يعتمد على طريقة أرسطو فى التفكير «إما ... أو ....» ، «إما الله أو الشيطان»، وهى طريقة أثبتت خطأها فى كثير من الأحيان؛ لأنها تعتمد على أنه لا يوجد احتمال ثالث، وهذا مبدأ أثبت فشله فى كثير من القضايا، ويسمى «مبدأ الثالث المرفوع» الذى يعتمد عليه المنطق الصورى القديم فى التفكير، والذى يفصل العالم إلى عالمين « أبيض أو أسود»، ويستخدم فقط قيمتين «صادق أو كاذب»، فالقضية حسب هذا المنطق القاصر تستخدم قيمتين تختار بينهما. ويتجاهل هذا المنطق القاصر أن من المحتمل وجود قيمة صدق ثالثة أو رابعة أو خامسة ...إلخ، على ما هو معروف فى المنطق متعدد القيم Many- Valued Logic.

أوضح ذلك أكثر، فأقول إن النسفى وغيره اختلفوا فى تحديد مَنْ هو المزين: هل هو الله تعالى أم الشيطان؟ وكان الاختيار بين المختلفين: إما أن الله هو المزين، أو أن الشيطان هو المزين، ولا يوجد احتمال ثالث أو رابع أو خامس.

وإذا رجعنا للواقع المعاش نجد أن الله هو الذى خلق إمكانية ذلك فى الإنسان، وإمكانية ذلك فى تلك الشهوات المذكورة، والممارسة الواقعية تبين أن وسوسة الشيطان تدخل على الخط، فتزينها بطريقة خطأ لتكون وسائل وأدوات للشر، وقد يأتى التزيين من إنسان آخر، وقد يأتى من المرأة نفسها التى تزين للرجل نفسها، وقد يأتى من الإنسان نفسه لأنه يتمادى فى التزيين لنفسه. وقد ... وقد ....، طبعا مع فوارق فى طبيعة التزيين. وفى إطار (المرأة)، وهى موضع هذه المقالات، نجد أن التزيين من الله لا يكون إلا فى الخير من أجل الحب والذرية وبناء الأسرة كوحدة أصيلة يتكون منها المجتمع واستمرار الجنس البشري، لكن فى حالة التزيين من الشيطان فإنه لا يكون إلا من أجل اتباع الشهوات فى حد ذاتها ومن أجل الشر. وفى حالة تزيين الإنسان للإنسان، فإنه قد يكون خيرا وقد يكون شرا حسب الإطار والسياق والغاية من عملية التزيين.

ويمكن أن تتوسع فى ذلك بالمثل على الرجال، فهم محل أيضا للتزيين للمرأة، وهم أيضا من الشهوات المزينة للنساء، وليس هذا شرا فى حد ذاته ولا خيرا فى حد ذاته، والأمر يتوقف على طبيعة إشباع هذه الشهوات، هل هو فى الإطار المشروع والسياق الصحيح ومن أجل غاية شريفة، أم هو فى الإطار غير المشروع والسياق الخطأ ومن أجل غاية فاسدة؟

وفى المنطق متعدد القيم، يمكن أن يتغير الشيء من الصدق إلى الكذب، ومن الكذب إلى الصدق حسب التغيرات الحادثة فى السياق، فالجنس قد يكون خيرا فى السياق المشروع، والجنس قد يكون شرا فى السياق غير المشروع. ومن هنا فإن النساء والرجال كمحل للشهوات لبعضهما البعض، ليس شرا فى ذاته وليس خيرا فى ذاته، والمسألة برمتها تتوقف على السياق والغاية والمشروعية.

وتأسيسا على ذلك، فليس من الصواب اعتبار ذكر النساء من الشهوات فى هذه الآية الكريمة، أمرا مستهجنا منهيا عنه فى إطار الفهم الأسطورى الذى يفهم السياق فى ضوء الحديث الذى يوجد بإسناده جهالة، والمنسوب خطأ إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال: «النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال».

كما أن الله تعالى ليس هو المزين وحده بإطلاق، وليس الشيطان هو المزين وحده بإطلاق، ولا يجب علينا أن نختار بين البديلين كما أراد النسفى الأشعرى وغيره، بل هناك عدة بدائل كلها تصح حسب السياق المقصود؛ فقد يكون المزين هو الله تعالى، وقد يكون الشيطان هو المزين، وقد يكون هناك احتمال ثالث أن المزين هو الإنسان، سواء لنفسه أو للأخرين.

ومن هنا تبطل طريقة التفكير الثنائية القائمة على واحدية الصواب فى الخطاب الدينى البشرى التقليدي، وينفتح المجال لطريقة تفكير مختلفة تعتمد على المنطق متعدد القيم فى الخطاب الدينى الجديد بالعودة إلى الوحى الكريم والواقع المعاش والعقل النقدي.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٦)

٧ فبراير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

من سمات الخطاب الدينى البشرى التقليدى النظر إلى الشهوات بوصفها أمرا مرذولا خسيسا، وعلى رأس هذه الشهوات النساء! يقول النسفى فى تفسيره (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، عن (حُبُّ الشهوات) المذكور فى الآية الكريمة: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران: ١٤). يقول: «الشهوة توقان النفس إلى الشيء، وجعل الأعيان التى ذكرها شهوات مبالغة فى كونها مشتهاة، أو كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية (مِّنَ النساء)...» (١/ ٢٤٠).

وهنا لابد من طرح عدة إشكاليات، كالآتي:

١- إذا كانت الشهوة حسب تعريف النسفى على النحو الآتي: «الشهوة توقان النفس إلى الشيء»، فهل توقان النفس إلى الشيء خسيس مسترذل مذموم فى حد ذاته، أم حسب طبيعة وسياق هذا الشيء وطريقة التوقان إليه، فتوقان النفس إلى الزوجة أمر محبوب، وتوقان النفس إلى غير الزوجة من غير انتهاج الطرق المشروعة أمر خاطئ فى الشرع وفى الأعراف العامة؟

٢- ألم يفطر الله الإنسان على توقان النفس إلى الأشياء المذكورة والتى هى من نعم الله التى أنعم بها عليه، (النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)؟

٣ - من أين جاء النسفى بأنها مذمومة فى حد ذاتها؟ هل يوجد فى الآية الكريمة ما يدل على ذلك؟ ربما يكون مرجعه فى ذلك (زُين للناس)، لكن إذا فسرنا القرآن بالقرآن، نجد أن ألفاظ الزينة والتزيين ويزين والألفاظ ذات العلاقة، ليست مذمومة فى حد ذاتها؛ وليست واردة فى القرآن فى سياقات الذم والشر بإطلاق، بل تختلف من سياق إلى آخر؛ حيث وردت فى مواضع كثيرة فى سياق إيجابى مندوب إليه أو فى سياق الأمر الإلهي. ومن السياقات الإيجابية على سبيل المثال: (يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...) (الأعراف، ٣١). فالزينة قد تكون فى الإطار الصحيح، وأيضا المتاع قد يكون فى الإطار الصحيح، لكنهما أيضا قد يكونان فى الإطار غير الصحيح، وهذا ما توضحه بقية الآية نفسها والآية التالية مباشرة، (... كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف: ٣١-٣٣). ولذا فالزينة والتزين والتزيين ليست شرا فى حد ذاتها، وليس لها طبيعة واحدة، ولا تستخدم أيضا بطريقة واحدة، فهى قابلة لأن تكون خيرا أو تكون شرا حسب توظيف الإنسان لها، ولذا فهى اختبار وابتلاء، (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (الكهف: ٧).

٤- ذكرت الآية الكريمة أن تلك الأشياء، ومنها النساء، (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، والسؤال هنا هل متاع الحياة الدنيا كله من المحرمات فى حد ذاته، أم أنه من نعم الله تعالى على الإنسان، وقد يستخدمها بشكل خاطئ وقد يستخدمها بشكل صحيح؟ إن المتاع فى القرآن الكريم جاء فى سياقات متنوعة، منها السلبى ومنها الإيجابي، السلبى مثل : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (يونس: ٢٣)، والإيجابى مثل: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ...) (هود: ٣)، (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعِنَبًا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (عبس: ٢٤ ـ ٣٢)، (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ..) (المائدة: ٩٦). ولا شك أن هذا وغيره متاع دنيوى امتن الله به على الإنسان. فليس متاع الدنيا كله مذموما. يؤكد ذلك أن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم يستمتع على زهده الحقيقى بجوانب من متع الحياة؟ ألم يقل صلى الله عليه وسلم:« أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(حديث صحيح رواه البخارى ومسلم).

٥ - فيما يتعلق ببقية الآية الكريمة: (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)، فإنها لا تتعارض مع ما تم ذكره أعلاه؛ لأنه فى كل الأحوال يوجد عند الله تعالى المزيد والمزيد، والعبرة بالنهاية الطيبة والعبرة بالمآب الحسن. وفى كل الأحول فإن القرآن الكريم فى بعض السياقات لا يتنكر للشهوات ولا للمتاع ولا لطريقة التعامل مع المرأة مادامت هى فى الإطار الصحيح، وإن كان يعد أن ما عند الله أبقى وخيرا من ذلك، وهذا يفيد الأفضلية لكنه لا يعد المفضول شرا بإطلاق. وهذا هو المعنى الصريح للآية التالية مباشرة: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (آل عمران: ١٥). ومن هنا فمن الفهم الخاطئ اعتبار النساء دوما من تزيين الشيطان. وعلاوة على ذلك فإن المرأة ليست من مباهج الدنيا فقط، بل من مباهج الآخرة أيضا.

٦ - إذا كان النسفى يفهم من الآية الكريمة أنها فى إطار الذم، فهل حب البنين المذكور عقب ذكر النساء مذموم هو أيضا؟ أم هو محبوب؟ أم هل سوف نكيل بمكيالين: كيل للنساء وكيل للبنين؟

وتأسيسا على ذلك، فإن المرأة إذا كانت من الشهوات التى تتوق لها النفس، حسب تعريف النسفى للشهوات، فإن هذا لا يجعلها فى موضع الشهوات المرذولة. ومن الخطأ ما قاله النسفى نقلا عن الحكماء عندما قال:«كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات؛ إذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية» «مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ١/ ٢٤٠». ولم يذكر النسفى مَنْ هم هؤلاء الحكماء، وهل كانت لديه وسيلة للتحقق من أن جميع الحكماء قالوا ذلك؟ طبعا لا؛ لأن الحصر غير ممكن فى زمنه. لكن يبدو أن فرقة الماتريدية التى تتقاطع مع الأشعرية فى معظم القضايا، غالبا ما تصدر أحكاما عامة دون تمييز ودون حصر للمقدمات ودون يقين بكل المفردات الداخلة تحت الحكم العام. وما هذا إلا لأن المعين الذى تنهل منه الماتريدية هو المعين نفسه الذى تنهل منه الأشعرية.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٧)

١٤ فبراير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

يظهر لنا يوما بعد يوم بطلان طريقة التفكير القائمة على إصدار أحكام عامة دون تمييز، تلك الطريقة التى نجدها فى الخطاب الدينى البشرى التقليدي، والتى تكرر الأنماط التقليدية لكل شيء، بما فى ذلك تصورها للمرأة. وهى طريقة تهدر السياق فى فهمها للقرآن الكريم، وهى أيضا لا تفسر القرآن بالقرآن، وحتى عندما تزعم تفسير القرآن بالقرآن، فإن زعمها يقف عند الحدود النظرية وليس الممارسة الفعلية. كما أنها لا تفسر عمليا القرآن بالسنة الصحيحة أو المتواترة على الرغم من أنها ترفع هذا الشعار. وفى مقابل ذلك فإن الخطاب الدينى الجديد يسعى جاهدا لتلافى هذه الأخطاء، سواء فى المنهج أو فى التصورات، أو فى القوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية أو من قصص الأولين.

ومجددا نجد أدلة وأمثلة عديدة على ذلك، والتى تكشف أن التصورات والقوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية أو من قصص الأولين دون أسانيد من الوحى الكريم الثابت تاريخيا ثبوتا يقينا، تسيطر على طريقة فهم البعض للقرآن الكريم، وكأنها عدسات يرى من خلالها بعض المفسرين نصوص الوحى الكريم، وهذه العدسات ملونة بشكل مسبق، فإذا كانت حمراء فإنها ترى كل شيء أحمر، وإذا كانت خضراء فإنها ترى كل شيء أخضر، وإذا كانت صفراء فإن كل شيء معها سوف يبدو باللون الأصفر، وهكذا. وعلى سبيل المثال، فإذا كان القالب النمطى المتوارث والمستقر فى الأذهان (أن الذكر أفضل من الأنثى)، فإنه فى ضوء هذا القالب النمطي، والذى هو بمثابة عدسة غير مادية لأنه منظور ذهنى عقلي، فسوف يتم فهم أى نص على أنه يشير إلى أن (الذكر أفضل من الأنثى)، حتى وإن كان لا يوجد فى النص ما يدل على ذلك، لكن هذا القالب النمطى يتعزز باستدعاء المرويات التاريخية غير الثابتة والمتوارثة عبر الثقافة الاجتماعية أو حتى الدينية البشرية والتى تنتقل عبر العصور.

تأمل معى أيها القارئ العزيز الآيات الكريمة التالية: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ. إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم. فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) (آل عمران: ٣٣- ٣٧).

ننظر أولا كيف فهم الأكثرون هذه المقاطع من الآيات الكريمة السابقة: (قالت رب إنى وضعتها أنثى)، (وليس الذكر كالأنثى)، ونبدأ بالبغوى (المتوفى: ٥١٠هـ) فى تفسيره (معالم التنزيل فى تفسير القرآن) (١/ ٤٣٢)، حيث قال: «كانت حنة بنت فاقوذا أم مريم عند عمران، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست. وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينما هى فى ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا فتحركت بذلك نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولدا، وقالت: اللهم لك علىّ إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس، فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم فحررت ما فى بطنها، ولم تعلم ما هو، فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت؟ أرأيت إن كان ما فى بطنك أنثى لا تصلح لذلك؟ فوقعا جميعا فى هم من ذلك، فهلك عمران وحنة حامل بمريم. (فلما وضعتها)، أي: ولدتها، إذا هى جاريةٌ، والهاء فى قوله: وضعتها راجعة إلى النذيرة لا إلى ما فى بطنها، ولذلك أنث، قالت حنة، وكانت ترجو أن يكون غلاما، رب إنى وضعتها أنثى اعتذارا إلى الله عز وجل، والله أعلم بما وضعت، بجزم التاء إخبارا عن الله تعالى عز وجل، وهى قراءة العامة وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب وضعت برفع التاء جعلوها من كلام أم مريم، وليس الذكر كالأنثى، فى خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها لينها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس».

لاحظ أيها القارئ الكريم أن تلك القصة التى يستند إليها البغوى ليست حديثا صحيحا عن النبى صلى الله عليه وسلم، وليس لها أى سند صحيح فى الإسلام. وفى هذه القصة تسيطر فكرة أفضلية الذكر، حيث تذكر أنها «دعت الله أن يهب لها ولدا»، وقالت «إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس»، و«رب إنى وضعتها أنثى» اعتذارا إلى الله عز وجل. وهذا وغيره مما أوردته القصة المروية على الرغم من أنه ليس مذكورا فى القرآن الكريم، فإن البغوى وغيره فهموا الآيات الكريمة فى ضوئه.

ولا يبعد عن هذا المسار الزمخشرى المعتزلى (المتوفى: ٥٣٨هـ) فى تفسيره (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) (١/ ٣٥٥ وما بعدها)، فيذكر أنه: «روى أنها كانت عاقرا لم تلد إلى أن عجزت، فبينما هى فى ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد وتمنته، فقالت: اللهم إن لك على نذرا شكرا إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه، ــ فحملت بمريم وهلك عمران وهى حامل ــ محررا معتقا لخدمة بيت المقدس لا يد لى عليه ولا أستخدمه ولا أشغله بشيء، وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم. وروى أنهم كانوا ينذرون هذا النذر، فإذا بلغ الغلام خير بين أن يفعل وبين أن لا يفعل. وعن الشعبى (محررا) مخلصا للعبادة، وما كان التحرير إلا للغلمان، وإنما بنت الأمر على التقدير، أو طلبت أن ترزق ذكرا، (فلما وضعتها) ... فإن قلت: فلم قالت: (إنى وضعتها أنثى)، وما أرادت إلى هذا القول؟ قلت: قالته تحسرا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرا، ولذلك نذرته محررا للسدانة. ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن ...».

وسار فى إطار المعانى السابقة أيضا القرطبى (المتوفى: ٦٧١هـ) فى تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) (٤/ ٦٤-٦٨)، كما سار الكثيرون لاحقا، ومنهم السيوطى الأشعرى (المتوفى: ٩١١هـ) فى تفسيره (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) (٢/ ١٨٠- ١٨١)، حيث يورد رواية أخرجها إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس، ذكر فيها «... فقال زوجها: أرأيت أن كان الذى فى بطنك أنثى - والأنثى عورة - فكيف تصنعين؟ فاغتمت لذلك فقالت عند ذلك: (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم)، يعنى تقبل منى ما نذرت لك، (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى)، والأنثى عورة...».

تلك كانت عينات نموذجية من نصوص بعض المفسرين التى تكرر الأنماط التقليدية السابقة على الإسلام فى فهم كل شيء وأى شيء، بما فى ذلك تصورها للمرأة.

والسؤال الآن: ما الدليل على أنها طريقة تهدر السياق فى فهمها للقرآن الكريم؟ وما الدليل على أنها لا تفسر القرآن بالقرآن، ولا بالسنة الصحيحة أو المتواترة؟ وما الدليل على أنها تعكس التصورات والقوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية أو من قصص الأولين دون أسانيد من الوحى الكريم؟ الإجابة فى المقالات القادمة إن شاء الله.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٨)

٢١ فبراير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

هل تجاوز الخطاب الدينى البشرى التقليدى حدود الوحى فى تفسيره للقرآن الكريم؟

وكيف استخدم التصورات والقوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية أو من قصص الأولين دون أسانيد من الوحى الكريم؟

ما الدليل على أنها طريقة تهدر السياق فى فهمها للقرآن الكريم؟ وما الدليل على أنها لا تفسر القرآن بالقرآن، ولا بالسنة الثابتة بيقين؟ وما الدليل على أنها تعكس التصورات والقوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية أو من قصص الأولين دون أسانيد من الوحى الكريم؟

تؤكد المرويات التى يعتمد عليها بعض المفسرين على أن الثقافة الأكثر شيوعا آنذاك تسلم بأن (المرأة عورة)، وأن (الذكر أفضل من الأنثى)، مع أن الآيات الكريمة موضوع حديثنا (الآيات ٣٣- ٣٧ من سورة آل عمران)، إذا فهمناها فهما مباشرا فى حدود تفسير الكتاب بالكتاب، وفى حدود السياق العام للأحداث كما يقصها الكتاب، لا تدل على ذلك.

كيف؟

نوضح ذلك فى النقاط التالية:

أولا- تلك الروايات التى ذكرها البغوى فى تفسيره (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، والزمخشرى المعتزلى فى تفسيره (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، والقرطبى فى تفسيره (الجامع لأحكام القرآن)، والسيوطى الأشعرى فى تفسيره (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور)، وغيرهم من بعض المفسرين، ليس لها أصل من الكتاب والسنة الثابتة بيقين، وغير مذكور مصدرها التاريخى سوى روايات الرواة المجهلة أو الموضوعة أو ضعيفة السند أو غير المنسوبة أصلا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا يوجد أى دليل تاريخى علمى على صحتها ونسبتها إليه صلى الله عليه وسلم.

ومن الملاحظ أيضا أن المعتزلة دعاة العقل لم يكونوا خارج هذا المشهد، فقد لاحظنا فى المقال السابق كيف أن الزمخشرى المعتزلى يقع فى الخطأ المنهجى نفسه عندما يستند إلى مرويات غير ثابتة النسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن المعتزلة شأن غيرهم وقعوا كثيرا فى فخ القوالب النمطية، واعتمدوا على مرويات لا ترجع إلى أصليّ الدين: القرآن والسنة الثابتة بيقين.

ثانيا- تنص تلك الرواية التى ذكرناها فى المقال السابق والتى أوردها السيوطى فى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) دون سند يقينى عن ابن عباس رضى الله عنه، وأخرجها إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس، على أن الأنثى فى حد ذاتها عورة، فهل جاء فى هذه الآية الكريمة أو غيرها من آيات القرآن الكريم ما يدل على ذلك؟ أم أن كل آياته المعنية بذكر الأولين من الصالحين تدل على الفاعلية الإيجابية للمرأة فى أحداث كثيرة ومتنوعة، راجع مثلا قصة موسى عليه السلام مع أمه وأخته وامرأة فرعون التى احتضنته فى بيتها، ثم قصة موسى مع ابنتى شعيب عليهم السلام، هل تجد ما يدل فى ذلك على أن المرأة عورة أو كانت عورة؟! ونحن نرجع هنا إلى القصص القرآنى المتعلق ببنى إسرائيل، لأن امرأة عمران وابنتها مريم اللتين تدور حولهما الآيات محور حديثنا هنا من بنى إسرائيل. وأحد الضوابط التى نؤكد عليها هى تفسير القرآن بالقرآن.

وفيما يتعلق بقصة موسى مع أمه وأخته وامرأة فرعون التى احتضنته فى بيتها، انظر إلى الآيات التالية: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ. وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (القصص: ٦ ـ ١٣).

فهنا ثلاث نساء يظهرن فى المشاهد القرآنية: أم موسى، امرأة فرعون، أخت موسى؛ فهل يجد القارئ الكريم ما يشير إلى فكرة أن (المرأة عورة)؟ أم أن النساء الثلاث متفاعلات فى الأحداث؟

وفيما يتعلق بقصة موسى مع ابنتى شعيب عليهم السلام، اقرأ معى هذا المشاهد القرآنية: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ. قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (القصص: ٢٣ ـ ٢٨).

فى المشهد الأول: بعد خروج موسى من قلب مصر، جاء موسى إلى مدين، فوجد مجموعة من الناس عند عين الماء التى يستقى منها أهل مدين، ووجد امرأتين تبعدان وتدفعان ماشيتهما، بعيدا عن الماء، لأن عليه مزاحمة. فتحدث معهما موسى بطريقة عادية جدا، لاحظ موسى عليه السلام يتحدث مع امرأتين لا يعرفهما لأنه أشفق عليهما، وقال: ما شأنكما؟ أى لماذا أنتما هكذا بعيدتين عن الماء لا تسقيان كما يسقى القوم؟ فردت المرأتان بكل بساطة وبطريقة مباشرة: لا نسقى حتى ينتهى الرعاء من ورودهم بئر الماء، (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ).

وفى المشهد الثاني: (فَسَقَى لَهُمَا).

والمشهد الثالث: (ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ).

والمشهد الرابع: (فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا). حيث رجعت واحدة من الاثنتين تمشى بحياء وتحدثت معه مرة أخرى موجهة له دعوة من أبيها النبى شعيب عليه السلام، حتى يكافئه على تطوعه بمساعدة ابنتيه.

وتتوالى المشاهد، حتى تتكلم واحدة منهما، (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ).

لاحظ هنا أن الفتاتين من بيت النبوة، فهما ابنتا شعيب النبى عليه السلام، ولا حظ أنهما فى أكثر من مشهد تتحدثان باحترام واتزان مع رجل أجنبى عنهما، ولا حظ أيضا أن موسى أيضا يتحدث معهما باحترام، فأين هى إذن فى هذه المشاهد قضية أن «المرأة عورة»؟

عزيزى القارئ الكريم.. لم تتسع المساحة المقررة للمقال إلا لنقطتين فقط، ونواصل الحديث عن بقية النقاط فى المقالات التالية إن شاء الله تعالى.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (٩)

٢٨ فبراير ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

رأينا فى المقالات السابقة كيف أن الخطاب الدينى البشرى التقليدى تجاوز فى كثير من الأوقات حدود الوحى فى تفسيره للوحي، وأهدر السياق فى فهمه للقرآن الكريم، ولم يلتزم فى قطاع منه بضابط تفسير القرآن بالقرآن. ونواصل اليوم ذكر نقاط أخرى تبرهن على ذلك فى فهم الآيات الكريمة موضوع حديثنا (الآيات ٣٣- ٣٧ من سورة آل عمران). وإذا تدبرنا تلك الآيات وفهمناها فهما مباشرا فى حدود تفسير الكتاب بالكتاب، وفى حدود السياق العام للأحداث كما يقصها الكتاب، وإذا وضعنا جانبا المرويات الضعيفة والموضوعة وقصص الأولين غير الواردة فى الوحى الكريم، فسوف نجد أن هناك خطأ منهجيا يتمثل فى الاستناد فى التفسير إلى مرويات غير ثابتة ولا ترجع إلى أصليّ الدين: القرآن والسنة الثابتة بيقين. كما أن قطاعا كبيرا وقع كثيرا فى فخ القوالب النمطية المتوارثة من بعض الأعراف الاجتماعية، وتأثروا بالعقلية الذكورية العنصرية والميول الفكرية والاتجاهات النفسية الذاتية التى تحول دون رؤية النص فى نقائه وحدود كلماته وعباراته وعلاقاتها ببعضها البعض، مما أنتج فكرا وتصورات ملونة بألوان العدسات الذهنية التى ينظرون بها.

وقد ذكرنا فى المقال السابق نقطتين، وفيما يلى بعض النقاط الأخرى المتعلقة بالآيات الكريمة موضوع حديثنا:

ثالثا- أرجو أن نرجع مرة أخرى لكلمات الوحى ونقرأها فى حدود الوحى نفسه، اقرأ معي: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران: ٣٣- ٣٧).

ونلاحظ أن الآيتين اللتين تفتتحان الموضوع، هما: (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليمٌ). ومعناهما المباشر والواضح والمبين: أن الله تعالى اختارهم وميزهم، ومنهم آل عمران، ولم يميز سبحانه فى آل عمران بين ذكر وأنثى، بل اختارهم سبحانه بإطلاق دون تمييز للنوع ذكرا كان أو أنثى، ويؤكد هذا قوله: (ذرية بعضها من بعض) دون تمييز أيضا بين ذكر وأنثى فى صفة الذرية. فهل الذكور يدخلون فى صفة الذرية دون الإناث؟ بطبيعة الحال هذا غير وارد.

بل القرآن نفسه يؤكد أن التمييز والأفضلية بالعمل الصالح وجودته وإتقانه، سواء كان هذا العمل من رجل أو امرأة، وهذا ليس بعيدا، بل فى سورة آل عمران نفسها، (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِى سَبِيلِى وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (آل عمران: ١٩٥).

هكذا تؤكد الآية الكريمة قضية واضحة وعادلة وهى (بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) دون تمييز بين ذكر وأنثى، مثل الآية الأخرى (ذرية بعضها من بعض) دون تمييز أيضا بين ذكر وأنثى.

وأيضا تتأكد هذه القضية العادلة فى سورة الحجرات، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣). نعم الأكرم عند الله يكون بعمله الصالح وليس بنوعه أو جنسه، إنه المعيار الذى لا يخطئ، إنه العمل الصالح وليس الذكورة أو الأنوثة، ولا اللون ولا العرق ولا الحسب ولا النسب ولا الغنى أو الفقر، ولا الوضع الاجتماعى ولا المهنة. كل حسب إتقان عمله وكل حسب جودة عطائه.

رابعا- ثم تنتقل الآيات مباشرة بعد هذا إلى امرأة عمران بوصفها من (آل عمران) الذين اصطفاهم الله تعالى، وفى هذا تقدير لها ولمكانتها مع أنها أنثى. تقول الآية الكريمة: (إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم).

خامسا- إن امرأة عمران فى الآية الكريمة لم تنذر لله ذكرا أو أنثى حسب منطوق الآية، بل نذرت ما فى بطنها بلا تعيين لكونه ذكرا أو أنثى، فجاء نذرها مُطْلَقًا لما فى بطنها دون تحديد نوع بعينه، (إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم)، انظر (ما فى بطنى محررا) دون أى تحديد للنوع، مرة ثالثة نقول: إنها تنذر ما فى بطنها أيا كان حسب منطوق الآية الكريمة، مما يؤكد أنها لم تنذر ذكرا بالتخصيص لأنها لا تستبق القدر الإلهى فى تحديد النوع. وهذا يدل أيضا على أنها تدرك -حسب منطوق النص القرآنى (ما فى بطنى محررا)- أن ما فى بطنها يصلح للمهمة بصرف النظر عن نوعه. والمهمة هى التفرغ لعِبَادَة الله تعالى خَالِصًا له سبحانه.

سادسا- ذكرت الآية أنها قالت: (فَلَمَّا وَضَعتهَا قَالَت رب إِنِّى وَضَعتهَا أُنْثَى)، وهذه عبارة وصفية خبرية ولا تتضمن أى حكم، وأيضا (وَاللَّهُ أعلم بِمَا وضعت) مجرد عبارة وصفية خبرية ولا تتضمن أى حكم سوى أن علم الله يتضمن العلم بقيمة ما وضعته. لكن الراغب الأصفهانى فى تفسيره (٢/ ٥٢٨)، يقول: «قولها: (إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى) لكون الأنثى ناقصة العقل والدين»، والسؤال: كيف استخرج الراغب الأصفهانى كون الأنثى ناقصة من قول امرأة عمران: (إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى)؟ إن هذه مجرد عبارة وصفية خبرية ولا تتضمن أى حكم، فكيف يستخرج منها نقصان الأنثى؟ إنها عبارة مثل عبارة: إنى وضعته ذكرا، أو عبارة: إنى ألفت كتابا، أو عبارة: إنى بنيت بيتا، فهل هذه العبارة تدل على أنه بيت جميل أو سيىء أو كبير أو صغير؟! إنها لا تدل سوى على أننى بنيت بيتا فقط ولا يوجد بها أى وصف آخر أو صفة أخرى أو أى حكم إيجابى أو سلبي. وكذلك قولها: (إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى)، لا يوجد به ما يدل على أى حكم إيجابى أو سلبي.

سابعا- تؤكد العبارة الكريمة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)، أن المسألة تتعلق بعلم الله تعالى بقيمة المولود بصرف النظر عن نوعه ذكرا كان أو أنثى. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة المذكورة فى القرآن الكريم هذه القيمة لمريم عليها السلام؛ مما يؤكد أن الأمر لا يتعلق بالذكورة ولا بالأنوثة، بل يتعلق بالقيمة.

ولا يزال التحليل مستمرا لهذه الآيات الكريمة فى حدود تفسير القرآن بالقرآن فى المقالات القادمة إن شاء الله تعالى.

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٠)

٧ مارس ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

هل الدين يُستقى من مصادر مجهولة؟ وهل كلام الوحى الكريم يُفسر بروايات مُجهلة أو روايات لا ترجع فى نهاية سندها إلى السنة النبوية الثابتة؟ وإذا كانت قواعد اللغة والبلاغة تسمح بأكثر من تفسير، فلِم يشد البعضُ المعنى نحو الزوايا الضيقة التى ألفها وعاش بها؟

لماذا يتمسك البعض ببعض القواعد البلاغية لتأييد تفسيره، بينما يتمسك البعض الآخر بالقواعد المقابلة لتأييد تفسيره المخالف؟

ألا يدل ذلك على أن الأمر يتجاوز الفريقين، إلى الضابط الأكثر أهمية وهو تفسير القرآن بالقرآن فى حدود المقاصد الكلية للرسالة؟ وفى حدود القواعد والمنهجية التى وضعها القرآن نفسه لفهمه وتفسيره؟

سوف نركز فى مقال اليوم على معنى مقطع: «وليس الذكر كالأنثى» الوارد فى آيات سورة آل عمران موضوع حديثنا (الآيات ٣٣- ٣٧). وبشكل عام سوف نجد هناك اتجاهات متعددة فى التفسير تفهم تلك العبارة تارة على أن «الذكر أفضل من الأنثى»، وتارة أخرى على أن «الأنثى أفضل من الذكر»، وكل اتجاه يستدل باللغة، والمرويات الضعيفة والموضوعة، وبما يزعم أنه السياق!

ونلاحظ مجددا أن الصورة الذهنية السائدة والقالب النمطى «الذكر أفضل من الأنثى»، قد انعكس على فهم الآيات الكريمة دون وجود أى شيء فى ألفاظها أو مقاطعها يدل على ذلك. وعلى سبيل المثال يقول الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ): «أما فضله عليها، فقد نبه عليه بقوله: (وليس الذّكر كالأنثى)»، (تفسير الراغب الأصفهانى ١/ ٤٦٩).

والسؤال: كيف يفهم الراغب وغيره منها الأفضلية مع أن العبارة الكريمة تؤكد مجرد اختلاف الذكر عن الأنثى؟! إنها مجرد عبارة وصفية خبرية ولا تتضمن أى حكم، عبارة معناها المباشر تأكيد أن الذكر ليس كالأنثى، لكن بعضهم يفهمونها هكذا «الذكر أفضل من الأنثى»! فعندما أقول: (وليس الأخضر كالأبيض)؛ فهل هذا معناه أن الأخضر أفضل من الأبيض!؟ فى تقديرى أن العبارة واضحة ومباشرة وتدل على مجرد الاختلاف وليس الأفضلية لأى طرف على الآخر.

وقد ذكرنا فى المقالين السابقين سبع نقاط، وفيما يلى بعض النقاط الأخرى المتعلقة بالآيات الكريمة موضوع حديثنا، على النحو الآتي:

ثامنا- هناك بعض المفسرين يؤكدون أن المعنى يفيد تفضيل الذكر على الأنثى، يقول ابن عاشور: «ليس الذّكر الّذى أردت أن يكون خادما، ويصلح للنّذر، كالأنثى الّتى لا تصلح لذلك، وكأنّها أعذرت إلى ربّها من وجودها على خلاف ما قصدت»، ويقول ابن عاشور أيضا: «جملة (وليس الذّكر كالأنثى) خبر مستعمل فى التّحسّر لفوات ما قصدته فى أن يكون المولود ذكرا، فتحرّره لخدمة بيت المقدس»، (تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، ٣/ ٢٣٣). ولا يقلل من ابن عاشور اختلافنا معه فى هذه النقطة أو غيرها، فهو من أنجب المفسرين على الرغم من وجود اختلافات معه. وقل مثل ذلك فى مفسرين كثيرين.

تاسعا- إذا كان بعض المفسرين يؤكدون على هذا المعنى، فإن هناك آخرين يفسرونها على معنى معاكس تماما يفيد أن (الأنثى المقصودة هنا، وهى مريم، أفضل من الذكر الذى طلبته امرأة عمران)، وهذا المعنى المعاكس يقدمه الشوكانى فيقول: «وليس الذّكر الّذى طلبت كالأنثى الّتى وضعت، فإنّ غاية ما أرادت من كونه ذكرا أن يكون نذرا خادما للكنيسة، وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم. وهذه الجملة اعتراضيّة مبيّنة لما فى الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلوّ منزلته، واللّام فى: الذّكر والأنثى للعهد» (تفسير فتح القدير للشوكاني، ١/٣٨٤).

عاشرا- يسير فى هذا الاتجاه فى فهم المعنى بهذه الطريقة البعض ممن يرون أن فهم مقطع (وليس الذّكر كالأنثى) طبقا لقواعد البلاغة- حسب فهمهم لها- يقتضى تفضيل الأنثى على الذكر؛ لأن (ليس النافية) إذا جاءت قبل الاسم تحوله إلى مفضول، فى حين أن الاسم الذى يأتى بعد (كاف التشبيه) يكون هو الأفضل، ويستدلون على ذلك بقولهم: (ليس الثرى كالثريا)، وقولهم: (ليس الأعمى كالبصير...)؛ مما يدل فى تفسيرهم على أن المشبه به الآتى بعد (كاف التشبيه) هو الأفضل وليس العكس. وعليه فإنهم يرون أن الأفضلية هنا مخصوصة بمريم؛ حيث إن اللام فى الذّكر والأنثى للعهد وليس لاستغراق الجنس.

ويرى البيضاوى فى تفسيره أن المعنى: «وليس الذّكر كالأنثى بيان لقوله: (واللّه أعلم بما وضعت)، أى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وهبت، واللام فيهما للعهد. ويجوز أن يكون من قولها بمعنى: وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت؛ فتكون اللام للجنس»، (أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/ ١٤).

أما أبو حيان الأندلسى (المتوفى ٧٤٥هـ) صاحب تفسير «البحر المحيط فى التفسير»، فيقول: «وليس الذّكر الّذى طلبته ورجوته مثل الأنثى الّتى علمها وأرادها وقضى بها. ولعلّ هذه الأنثى تكون خيرا من الذّكر، إذ أرادها اللّه، سلّت بذلك نفسها. وتكون: الألف واللّام في: الذّكر، للعهد، فيكون مقصودها ترجيح هذه الأنثى الّتى هى موهوبة اللّه على ما كان قد رجت من أنّه يكون ذكرا... وقرأ باقى السّبعة: بما وضعت، بتاء التّأنيث السّاكنة على أنّه إخبار من اللّه بأنّه أعلم بالّذى وضعته. أي: بحاله، وما يؤول إليه أمر هذه الأنثى، فإنّ قولها: (وضعتها أنثى)، يدلّ على أنّها لم تعلم من حالها إلّا على هذا القدر من كون هذه النّسمة جاءت أنثى لا تصلح للتّحرير، فأخبر تعالى أنّه أعلم بهذه الموضوعة، فأتى بصيغة التّفضيل المقتضية العلم بتفاصيل الأحوال، وذلك على سبيل التّعظيم لهذه الموضوعة، والإعلام بما علق بها وبابنها من عظيم الأمور، إذ جعلها وابنها آية للعالمين. ووالدتها جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئا»، (البحر المحيط فى التفسير ٣/١١٧- ١١٨).

حادى عشر- الرد جاهز من بعض المفسرين القائلين بتفضيل الذكر والمخالفين لهذا التفسير، وبقواعد البلاغة أيضا! يقول الخازن فى تفسيره:«وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره: (وليس الأنثى كالذكر)، والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى»، (لباب التأويل فى معانى التنزيل ١/ ٢٤٠). وكأن اللغة عند بعضهم جاهزة للاستدلال بها على الشيء ونقيضه! والراغب الأصفهانى يستدل على نقصانها بالمقطع نفسه، فيقول: «ولهذا قالت: (وليس الذّكر كالأنثى)، ولأنه رُوى أنه لم يكن يستصلح للتحرير من قبل إلا الذكور» (تفسير الراغب الأصفهانى ٢/ ٥٢٩). إذن من الواضح أيضا أن مرويات السابقين المُجهلة هى إحدى أهم أسباب هذا الفهم، يقول: «روى أنه لم يكن يستصلح للتحرير من قبل إلا الذكور». ولاحظ أيضا أن فعل «رُوي» مبنى للمجهول.

والحديث لم يكتمل حول هذه النقطة؛ وأرجو ألا يقع البعض فى الفخ نفسه، فيحكم على وجهة نظرى من مقال واحد لم يكتمل فيه الحديث. وإلى لقاء فى المقال القادم إن شاء الله تعالى.

ضد التصور الأسطوري للمرأة (١١)

١٤ مارس ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا شك أنه توجد ضوابط علمية متعددة في تفسير القرآن الكريم، ولا شك أيضا أن أهمها بإطلاق هو ضابط تفسير القرآن بالقرآن، حيث يجب فهم مقاصد الوحي دون اقتطاع لآياته الكريمة من سياقها الخاص ولا من السياق العام للقرآن الكريم؛ فالقرآن كتاب مبين يفسر بعضه بعضا، ويجب فهمه في إطار المقاصد الكلية لرسالة السماء إلى الأرض.

أقول هذا بمناسبة أن بعض الناس يفهمون الكلام بطريقة غريبة، ويحرفون العبارات عن مواضعها، ليس فقط آيات القرآن؛ ولكن أيضا كلام البشر عنه. فعندما تقول:«ان أهم ضابط في فهم القرآن هو ضابط تفسير القرآن بالقرآن»، فإن البعض يحرف هذه المقولة، سواء بقصد أو دون قصد، إلى العبارة التالية: «القرآن لا يفسر إلا بضابط واحد ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن»!!! ومن هذه المقولة المحرفة يبدأ في الاختلاف معك! وليس بخاف أن هذا يُدخل المختلف معك في معركة زائفة؛ حيث يصطنع خصما غير موجود أساسا!!

والأمر الثاني، والذي لا يقل غرابة عن الأول، هو أنهم يظنون أن كلامنا عام مطلق على جميع المفسرين! وهذا خطأ منهجي آخر يعكس الرغبة في تحريف الكلام؛ لأن مجرد التركيز في العبارات يبين بوضوح استخدامنا لكلمات من قبيل: «بعض، أكثر، قطاع كبير، وقع كثيرا ...إلخ»، ومن هنا فإننا نؤكد خطأ الأحكام العامة دون تبصر في حدود مناهج البحث العلمي. ونؤكد مجددا أن أي جهد علمي له مميزاته وعيوبه شأن أي عمل بشري. والتراث ليس كتلة واحدة نرفضها أو نقبلها، بل يجب التمييز فيه بين الإيجابي والسلبي، وذكر السلبي ليس معناه عدم الاعتراف بالإيجابي، ذلك الإيجابي الذي يمثل إسهاما حقيقيا بارزا في تطور العلوم، ويحق لنا أن نفتخر به دون تقديسه ودون تجميده مثلما حدث في عصور التراجع.

تلك مقدمة ضرورية بدأنا بها هذا المقال في سلسلة (ضد التصور الأسطوري للمرأة)، حيث نواصل في المقال الحالي تحليل (الآيات ٣٣- ٣٧) من سورة آل عمران، والتي نكشف فيها عن حجم الإسقاطات التي حدثت في تفسيرها من الثقافة المتوارثة والتي أخرجت تلك الآيات عن حدود كلمات الوحي ومقاصده. وقد ذكرنا في المقالات السابقة إحدى عشرة نقطة، وفيما يلي بعض النقاط الأخرى المتعلقة بالآيات الكريمة موضوع حديثنا، على النحو الآتي:

ثاني عشر- أرجو أن نرجع مرة أخرى لكلمات الوحي الكريم، فلن تجد فيها ما يدل على تفضيل الذكر على الأنثى إذا فهمنا كلمات الوحي في حدود كلمات الوحي ولم نسقط عليها ثقافتنا الموروثة من المرويات الضعيفة وقصص الأولين، اقرأ معي:

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران: ٣٣- ٣٧).

فهل توجد في هذه الآيات الكريمات أى كلمة حرفية أو أي مقطع حرفي يتعلق بأفضلية الذكر على الأنثى؟ وإذا كان البعض سوف يحدثك عن المجاز وليس الفهم الحرفي، إذن فإن الأمر يتعلق بالمجاز، وليس الحرف، ومن ثم إذن فأنت أمام معنى مجازي مفتوح يجب ألا تشده إلى طريقة واحدة في الفهم إلا إذا كان مجموع الآيات المذكورة عن الموضوع نفسه مع مجموع آيات الكتاب كله يؤدي إلى المعنى المقصود.

ومثلما لا يوجد ما يدل على تفضيل الذكر على الأنثى كحكم مطلق، فإنه لا يوجد ما يدل على تفضيل الأنثى على الذكر كحكم مطلق، فالاثنان سيان من حيث القيمة الإنسانية، والتمييز إن حدث فإنه يحدث بسبب لا يرجع إلى الذكورة والأنوثة، وإنما يرجع إلى قيمة مضافة فردية تميز فردا عن فرد لعمله أو كفاءته.

ثالث عشر- مما يدل على هذا الفهم قوله: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)، إذن فلم يفرق في القبول كونها أنثى أو ذكرا، والقبول هنا جاء على نحو طبيعي دون أي تدخل استثنائي أو مبالغة في الفعل، بدليل أن الوحي الكريم استخدم لفظ القبول طبقا للوضع الطبيعي العادي، ولم يستخدم لفظ التقبل الذي يفيد المبالغة مثل التصبر والتجلد. يقول الفخر الرازي: «مَا كَانَ مِنْ بَابِ التَّفَعُّلِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اعْتِنَاءِ ذَلِكَ الْفَاعِلِ بِإِظْهَارِ ذَلِكَ الْفِعْلِ كَالتَّصَبُّرِ وَالتَّجَلُّدِ وَنَحْوِهِمَا، فَإِنَّهُمَا يُفِيدَانِ الْجِدَّ فِي إِظْهَارِ الصَّبْرِ وَالْجَلَادَةِ، فَكَذَا هَاهُنَا التَّقَبُّلُ يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي إِظْهَارِ الْقَبُولِ»، (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ٨/ ٢٠٥).

وقد يظن البعض أنه ربما تكون المبالغة أفضل. وأتصور أن هذا ظن لا يفيد المعنى العام؛ لأن المبالغة في مثل هذا اللفظ يوجد بها نوع من التكلف، بينما الأمر الطبيعي هو القبول للشخص سواء ذكرا أو أنثى؛ فهذه الذرية بعضها من بعض، والاصطفاء لآل عمران هو اصطفاء لا تمييز فيه بين ذكر وأنثى.

ويؤيد هذه الطريقة في فهم المقطع الكريم ما ذكره الفخر الرازي، يقول: «فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ لَمْ يَقُلْ: فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِتَقَبُّلٍ حَسَنٍ حَتَّى صَارَتِ الْمُبَالَغَةُ أَكْمَلَ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ لَفْظَ التَّقَبُّلِ وَإِنْ أَفَادَ مَا ذَكَرْنَا إِلَّا أَنَّهُ يُفِيدُ نَوْعَ تَكَلُّفٍ عَلَى خِلَافِ الطَّبْعِ، أَمَّا الْقَبُولُ فَإِنَّهُ يُفِيدُ مَعْنَى الْقَبُولِ عَلَى وَفْقِ الطَّبْعِ، فَذَكَرَ التَّقَبُّلَ لِيُفِيدَ الْجِدَّ وَالْمُبَالَغَةَ، ثُمَّ ذَكَرَ الْقَبُولَ لِيُفِيدَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى خِلَافِ الطَّبْعِ، بَلْ عَلَى وَفْقِ الطَّبْعِ، وَهَذِهِ الْوُجُوهُ وَإِنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّهَا تَدُلُّ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِعَارَةُ عَلَى حُصُولِ الْعِنَايَةِ الْعَظِيمَةِ فِي تَرْبِيَتِهَا، وَهَذَا الْوَجْهُ مُنَاسِبٌ مَعْقُولٌ»، (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، ٨/ ٢٠٥).

إذن، فالتعامل مع تلك الأنثى وقبولها كان طبقا للوضع الطبيعي في القبول، ولم يكن هذا على خلاف الطبع، ولم يحتج أي وجه من وجوه (التَّفَعُّل) الإضافية.

رابع عشر- أما مقطع (أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا)، فهو يعني: أنشأها إِنْشَاءً صَالِحًا ورباها على نحو طبيعي أيضا دون مبالغة، حيث تم استخدام لفظ (أنبتها نباتا)، مثلما يحدث على نحو طبيعي في الطبيعة، (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً)، (نُوح/ ١٧). يقول ابن عاشور: «فَشُبِّهَ إِنْشَاؤُهَا وَشَبَابُهَا بِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ الْغَضِّ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ»، (التحرير والتنوير٣/ ٢٣٥).

إذن، فالأمور كلها تسير على نحو طبيعي مع هذه الأنثى في القبول الإلهي والتنشئة الربانية، ولم تؤد أنوثتها إلى الانتقاص منها في مثل هذه الظروف، فلا اعتبار للأنوثة والذكورة في العمل الصالح ولا اعتبار للأنوثة والذكورة في القبول الإلهي.

وللحديث بقية

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٢)

٢١ مارس ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لمشهد الختامى الرائع عن الرزق الإلهى لذلك الجزء من قصة امرأة عمران وابنتها مريم عليهما السلام، يبين أيضا أنه لا يوجد تمييز فى الرزق على أساس الذكورة والأنوثة؛ فالله يرزق من يشاء بلا حساب، (وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، (سورة آل عمران، ٣٧).

إذن فلا اعتبار للذكورة والأنوثة فى نوال الرزق، ولا ميزة إضافية للذكر من حيث كونه ذكرا فقط تجعله فى موضع أفضل من الأنثى لنوال الكرم الإلهي. فالأمر كله مرتبط بالمشيئة الإلهية والعمل الصالح والشخصية الصالحة، سواء كانت ذكرا أم أنثى، وسواء كان الرزق استحقاقا نتيجة الجهد أو كرما وعطاء إلهيا، فلا اعتبار فى أي حالة من الحالتين لمعيار الأنوثة والذكورة.

وقد كَفَلَها زكريا عليه السلام، ورباها وتولى شئونها، بعد أن اختلفوا على من يكفلها، فكانت من نصيب زكريا، (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)، (سورة آل عمران، ٤٤).

فقد اختلفوا بينهم على من يكفلها، وحسموا هذا الاختلاف بالاقتراع والمساهمة عند التنازع على العادة التى كانت سارية فى حسم الخلاف، «فيطرحون سهاما يكتبون عليها أسماءهم. فمن خرج له السهم سلم له الأمر. مثل قوله فى موضع آخر: (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) (الصافات: ١٤١)، وهو شبيه بالقداح التى يتقاسم بها العرب لحم الجزور. وإنما سميت تلك السهام أقلاما لأنها تقلم وتبرى. قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحا نظرا إلى أصل الاشتقاق إلا أن العرف الظاهر يوجب اختصاص القلم بهذا الذى يكتب به فوجب حمل اللفظ عليه»، (تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى، ٢/ ١٦١). وحدث خلاف بين المفسرين فى تحديد هوية مَنْ هم المختلفون على الفوز بالقيام بتربيتها، فقيل: هم خزنة البيت. وقيل: بل العلماء والأحبار وكتاب الوحى. ويرى النيسابورى أنه «لا شبهة فى أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل فى الدين والرغبة فى طريق الخير»، (غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى، ٢/ ١٦١). وفى حدود ضابط تفسير القرآن بالقرآن، وفى حدود سياق القصة فى القرآن، يبدو أنهم آل عمران، فالسياق كله حولهم.

والملفت أن هذه المنافسة حول كفالتها تكشف عن أمور عديدة، لعل من أهمها أنه يجب أن نستنتج منها، بشكل مباشر ودون أى إسقاط على النص، أنهم لم ينصرفوا عنها لكونها أنثى ولم يقللوا من شأنها، بل كان لكل منهم رغبة شديدة فى تولى تربيتها والقيام بشئونها، وأنهم تقبلوا ببساطة فكرة أنها محررة للعبادة فى المعبد. ولم يخرج منهم أحد فى حدود ما ذكره القرآن الكريم رافضا الفكرة بحجة أن هذا اختصاص الذكور.

واستقرت مريم فى المحراب، شأنها شأن الذكر الصالح المحرر للبيت، سواء كان المحراب غرفة أو مسجدا، وسواء كان الْمِحْرَابَ هو الْمَوْضِعَ الْعَالِيَ الشَّرِيفَ أو كان أشرف مواضعه ومقدمها. وفى كل الأحوال لا يوجد تمييز إلا التمييز القائم على طبيعة الشخصية، وليس التمييز القائم على الأنوثة والذكورة.. (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)، (سورة آل عمران، ٣٧). وهذا كما يقول شهاب الدين الألوسى (المتوفى: ١٢٧٠هـ) فى تفسيره: «بيان لقبولها ولهذا لم يعطف...»، (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، ٢/ ١٣٤). وقد يكون المحراب غرفة بُنيت لها فى بيت المقدس، وقد يكون المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وقد يكون أشرف مواضعه ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد فى رأى، وأصله مفعال صيغة مبالغة كمطعان فسمى به المكان لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه، وقيل: إنه يكون اسم مكان وسمى به لأن محل محاربة الشيطان فيه أو لتنافس الناس عليه. (روح المعانى، ٢/ ١٣٤).

وذكر الرازى أن الْمِحْرابَ هو الْمَوْضِعَ الْعالِيَ الشَّرِيفَ، وَاحْتَجَّ الْأَصْمَعِيُّ - فى إطار تفسير القرآن بالقرآن- عَلَى أَنَّ الْمِحْرَابَ هُوَ الْغُرْفَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ) (ص: ٢١)، وَالتَّسَوُّرُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عُلُوٍّ، وَقِيلَ: الْمِحْرَابُ أَشْرَفُ الْمَجَالِسِ وَأَرْفَعُهَا، (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ٨/ ٢٠٦- ٢٠٧). وهذا ما أيده القرطبى فى تفسيره على أساس معيار التفسير باللغة، يقول: «الْمِحْرَابُ فِى اللُّغَةِ أَكْرَمُ مَوْضِعٍ فِى الْمَجْلِسِ»، (الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٧١).

إذن فهى على أي حال، فى موضع شريف ومقام كريم، سواء كان غرفة فى المعبد أو فى مكان مخصوص منه، المهم أنها فى المحراب، والمهم أنها قائمة تصلى فيه، مثلها مثل زكريا الذى كان يصلى أيضا فى محرابه، (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ)، (آل عمران، ٣٩).

فمن أين أتى المفضلون للذكر على الأنثى بما يقولون فى اختصاص الذكر بالتعبد فى المحراب وخدمة البيت؟ إن القرآن الثابت ثبوتا يقينيا بروايات متواترة تاريخيا لا يوجد به نص مباشر مبين يقول هذا، ولا يجوز إسقاط معان وتفسيرات عليه بالاستناد إلى روايات آحاد غير متواترة، ولا بقصص ومرويات تاريخية ظنية الثبوت أو موضوعة، ولا بصور ذهنية متوارثة، ولا قوالب اجتماعية أو نفسية متراكمة عبر التاريخ.

ويستمر السياق القرآنى المبين، فيقول: (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ. ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ)، (آل عمران، ٤٣ -٤٤). هكذا لا فرق بين ذكر وأنثى فى مقام القنوت، ولا فرق بين ذكر وأنثى فى السجود والركوع مع الراكعين؛ وليس أى منهما أقرب إلى الله إلا بقلبه وعقله وعمله؛ فكل بدرجة إنسان، وكل يتوجه نحو الواحد الأحد، وكل فى ميزان العدل بمقياس واحد، وكل يُقيَم عمله بمعايير الإنصاف وحدها، وكل يخدم فى المعبد، وكل يساهم فى صناعة التاريخ، وكل يخضع لقواعد القبول فى إطار عدالة الله مطلقة، وليست عدالة البشر النسبية.

فسلام على امرأة عمران، وسلام على مريم، وسلام لكل أم متفانية واعية، وسلام لتلك التى باعت جزءا من مصاغها لتشترى لصبيها الشغوف تفاسير روح المعانى، ومفاتيح الغيب، وغرائب القرآن، والجامع لأحكام القرآن؛ حتى تزيد مكتبته وتتسع وتتنوع المرجعيات أمام نظره.

سلام ورحمات وأنوار على كل امرأة تقوم بواجبها، وسلام ورحمات وأنوار لكل امرأة تصنع رجلا أو امرأة. وسلام ورحمات وأنوار على زكريا وعلى كل رجل يعيش من أجل ربه، من أجل أسرته، من أجل الآخرين، من أجل الإنسانية.

مصر والصين.. الشمس التى لا تأفل حتى تعود!

١١ أبريل ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تظهر عظمة بعض الشعوب فى عمقها الحضارى الموغل فى القدم، وفى قدمها الراسخ بين أمم الأرض فى العلوم والفنون والآداب، وعلى رأس هذه القائمة تأتى حضارتان موغلتان فى القدم، هما حضارة مصر وحضارة الصين اللتان ظهرتا مع بزوغ فجر الإنسانية.

وقد مرت حضارتا مصر والصين بدورات كونية من البزوغ والأفول، لكن لم تخرج أى حضارة منهما من التاريخ فى أصعب اللحظات، ولم تندثر مثل كثير من الحضارات التى اندثرت، وبقيت حضارة مصر وبقيت حضارة الصين.

وفى منتصف القرن الماضى استطاعت مصر والصين أن تتحررا من الاستعمار، فالأمم الأصيلة ربما تضعف لكنها لا تموت، إنها مثل طائر العنقاء الأسطورى Phoenix، الذى يحترق ثم ينبعث مرة أخرى من رماده، أى أنه يتضمن سلبه كما يتضمن إيجابه على حد تعبير هيجل فى كتابه «محاضرات فى فلسفة الدين»، ومن ثم تشتمل الفكرة فى داخلها على «الآخر»، وعبر ذلك «الآخر» تعود مرة أخرى إلى ذاتها. إنهما حضارتان مثل الشمس، التى لا تأفل حتى تعود!

وتجمع حضارة مصر بحضارة الصين روابط مشتركة عبر التاريخ على الرغم من ابتعاد المسافات، ولعل من أهمها انفتاح الشخصية على الآخر وإكرام الضيف، واحترام الأكبر سنا، وتقدير الماضي، والتطلع إلى المستقبل. وأيضا فإن رؤية العالم عند المصرى تتوجه نحو السماء مثلما هى فى الصين، فالصين تقدس السماء بوصفها قوة عليا، سامية، والخوف منها. ويعتقد الصينيون أن السلوك الطيب يرضى السماء، ويجلب البركة، أما السلوك الآثم، فإنه يغضب السماء التى تعاقب مقترفيه بأن تلبسهم لباس الحاجة والفقر. لكن السماء عند المصريين القدماء مشخصة ومجسدة، بينما السماء عند الصينيين تدل على الكلية المجردة وغير المحددة. (انظر كتابنا: تطور الأديان).

وعلى مستوى البناء السياسي، فإن مفهوم الدولة المركزية نشأ مبكرا فى مصر القديمة مثلما نشأ فى الصين، فالدولة هى الإطار الموحد، والدولة هى الهوية الوطنية التى تضفى على الشعب والإقليم والحكومة طابعا متماسكا وروحا واحدة فى مواجهة الفوضى والاضمحلال. والأخلاق التى يقوم عليها دين السماء الصينى هى التى تبلورت مع كونفوشيوس، ويُطلق على هذه الأخلاق: أخلاق الدولة، وهى ذات طابع أبوى بطريركي، فهناك الواجبات تجاه الأعلى مقاما، وهناك واجبات الأبناء نحو الآباء، وواجبات الآباء نحو أبنائهم، وواجبات الشقيقات والأشقاء تجاه بعضهم البعض. ومن المحطات الجديرة بالتوقف عندها فى حضارة الصين، فكرة التنزيه والتجريد الموجودة فى ديانة الطاو (العقل أو الطريق) التى بلورها «لاو- تسى» المولود آخر القرن السابع قبل الميلاد. وكتاب لاوتسى الرئيسى يُطلق عليه غالبا اسم «طاو- طى- كينج»، أى كتاب العقل والفضيلة.

وإذا قفزنا إلى الصين فى التاريخ المعاصر، فسوف نجد أنه فى الوقت الذى سقطت فيه الاشتراكية فى بلدان كثيرة، فإنها لم تسقط فى الصين لأنها استطاعت أن تجدد نفسها بعناصر رأسمالية، ومن ثم استطاعت النجاح وتقديم نموذج اقتصادى عملاق. واليوم نجد أنفسنا أمام قوة عظمى بالمعنى الشامل اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، وهى قوة عظمى لا تزال صاعدة بقوة، وهذا الصعود بالمعنى الشامل أيضا؛ خاصة أنها تعزز صعودها بعلاقات دولية ليس فقط على مستوى دول العالم الأول إجمالا، بل تعززه أيضا بعلاقات متعمقة مع دول العالم النامى الذى تتبنى كثيرا من قضاياه العادلة فى التنمية.

ولا شك أن مواقفها السياسية المتقاطعة مع المحددات القومية المصرية كثيرة ومتنوعة منذ استقلال الصين وقيام جمهوريتها المستقلة فى أكتوبر ١٩٤٩م، والتى تلاها قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م. وقد بدأ التقارب بين مصر والصين عقب قيام ثورتها المجيدة، حيث حدث التجاذب التلقائى بينهما نتيجة اقتراب الرؤى فى الدفاع عن حقوق العالم الثالث ضد قوى الإمبريالية العالمية، والتقى الرئيس جمال عبد الناصر والسيد «شو إن لاى» رئيس وزراء الصين مرات عديدة فى المحافل الدولية. وفى ٣٠ مايو ١٩٥٦، كانت مصر هى أول دولة عربية وإفريقية تعلن اعترافها وتأييدها للصين الشعبية وتبدأ فى إقامة علاقات دبلوماسية معها، مما كان له أبلغ الأثر فى تتابع الاعتراف الدولى بها فى وقت عصيب كان يخيم فيه مناخ التوتر على العلاقات بين الشرق والغرب أثناء الحرب الباردة. واستمرت تلك العلاقات قوية عبر مراحل تطور جمهورية مصر العربية بعد الرئيس جمال عبد الناصر، ووصلت إلى ذروتها فى عهد الرئيس عبد الفتاح السيسي، لا سيما أن كثيرا من التقاطعات موجودة بين الدولتين فى العديد من القضايا الاستراتيجية على المستويين الإقليمى والدولي. وكان من الطبيعى أن تصل إلى مستوى الشراكة الإستراتيجية الكاملة فى الاتفاقية التى وقعها الزعيمان عبدالفتاح السيسى وشى جين بينغ عام ٢٠١٤.

وقد أدركنا نحن فى جامعة القاهرة هذا التلاقى الاستراتيجي، وعملنا على توسيع نطاق التعاون العلمى والبحثى مع الصين على مستوى البرامج الدراسية والشراكات البحثية وتبادل الطلاب والأساتذة. ومن مظاهر هذا التعاون، أثناء زيارتى للصين فى نوفمبر ٢٠١٧ ونوفمبر عام ٢٠١٨ ، تم توسيع نطاق التعاون مع جامعة بكين وتوقيع اتفاقية بحثية شاملة مع أكاديمية شنغهاى للعلوم. وفى العام نفسه تمت المشاركة فى برنامج جديد للقيادة الجامعية، كما تم توقيع ثلاث اتفاقيات لدرجات علمية مزدوجة فى الليسانس والدراسات العليا مع جامعة شنغهاى جياو تونج المصنفة ٥٦ عالميا، وهى من البرامج العديدة التى تدخل فى الفرع الدولى لجامعة القاهرة الذى يجرى العمل فى إنشائه على قدم وساق. وفى العام نفسه تمت مشاركتنا فى منتدى الابتكار والعلوم والحزام والطريق فى شنغهاي. وأعتز بشكل شخصى باختيار الجامعات الدولية المشاركة فى منتدى العلوم والابتكار لشخصى عضوا دائما بلجنة سياسات العلوم والابتكار بجامعة شنغهاى جياو تونج، وهى لجنة تعمل فى إطار مبادرة الحزام والطريق التى سوف تتغير معها خريطة التجارة العالمية. ومن المتوقع أن تؤدى الى التأثير الثقافى والاجتماعى على الشعوب التى يمر منها الطريق. ولا شك أن مصر سوف تستفيد بشكل مباشر من مشروع الحزام والطريق لأنه سوف يزيد من حجم المرور فى قناة السويس، كما يؤدى الى زيادة الروابط المشتركة بين الشعوب فى الاحتكاك والتواصل الحضارى والتعرف على أنماط الحياة والمشاركة فيها. مما يجعلنا نقترب من أرضية مشتركة وقيم مشتركة وتنوع إنسانى. وهذا كله سوف يدعم إقامة سلام دائم بين الشعوب.

ولا أنسى ذلك اللقاء الثرى مع السفير الصينى المخضرم السيد «سونج أيقوه» السفير السابق بالقاهرة فى فبراير ٢٠١٨، والذى أظهر فيه إعجابه وتقديره لمصر ولجامعة القاهرة. كما لا أنسى افتتاحنا معا فى أبريل ٢٠١٨ معهد كونفوشيوس أكبر معهد لتعليم اللغة الصينية بالشرق الأوسط. واستمر هذا التعاون مع السفير الحالى السيد «لى لياو تشيانغ» الذى بذل جهودا بارزة لدعم التعاون بين البلدين الكبيرين فى ظل ظروف صعبة يمر بها العالم بسبب جائحة كورونا.

وكان لجامعة القاهرة السبق فى إدراك أهمية اللغة الصينية المتصاعدة، ولذا قررنا فى مجلس جامعة القاهرة عام ٢٠١٨ إدخال اللغة الصينية كلغة ثانية اختيارية فى جامعتنا العريقة. ولا أنسى أيضا مشاركتنا فى منتدى رؤساء جامعات العالم والذى ضم ١٣٧ جامعة عالمية من قارات العالم الست، وتم لقاء السيدة سون تشون لان نائب رئيس مجلس الوزراء. وفى كل مرة كانت قنوات التشاور تتسع حول أفاق جديدة للتعاون العلمى لصنع جسور التواصل بين مصر والصين والبحث عن الروابط المشتركة بين هاتين الحضارتين العريقتين فى القدم. وفى كل الأحوال فإن موقف جامعة القاهرة ينبع من موقف مصر الدولة الرصينة تجاه شريك استراتيجى يبادل مصر المحبة والتعاون.

لقد كانت ذكريات سعيدة قضيتها فى زيارات عديدة لبكين وسورها العظيم، وشنغهاى ونهرها البديع، و«كوين مين» وأشجارها الوارفة، و«سو جو» الهادئة، و«هانغ جو» وبحيرتها المقطوعة من السماء وكهفها الرحب. تلك المدن التى لم أشعر فيها بالغربة، وبقدر ما أعجبتنى البيئة الطبيعية الخلابة بها، أعجبتنى أيضا مظاهر العمران والتقدم والحداثة، وأعجبنى كرم الشعب الصينى وحسن ضيافته وانفتاحه على الثقافات الأخرى، كما أعجبتنى صرامة الدولة فى تطبيق القانون. إن التقدم لا يأتى عبثا!

ضد التصور الأسطورى للمرأة (١٣)

١٨ أبريل ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تتلخص صورة المرأة الذهنية عند بعض الفئات فى المجتمعات المختلفة فى أنها ضعيفة، ماكرة، كيدها عظيم، مكانها دوما متأخر عن الرجل، غير مؤهلة للحكم ولا للمناصب القيادية، مصدر للغواية، يوظفها الشيطان فى أعماله الشريرة. ومن اللافت للنظر أن مثل هذه الفئات تجل الأم، فكل رجل يجل أمه ويرفع من مكانتها غالبا ويبرز دورها فى حياته، لكنه عندما يتحدث عن المرأة الأخرى فإنه يفعل عكس ذلك تماما! فالتناقض المريع هو سمة من سمات العقلية الرجعية، ولن تجد هذا فقط فى موقف تلك العقلية الرجعية من المرأة، بل تجده فى معظم القضايا. وربما تسمح الظروف لكتابات أخرى للكشف عن تناقضات العقلية الرجعية فى موضوع مستقل. فنحن لا نريد الخروج عن سياق وحدة الموضوع الذى نتكلم فيه اليوم.

وتجد تلك الصورة الرجعية عن المرأة مغذيات كثيرة لها من مصادر متعددة، منها: الثقافة الموروثة، والعادات والتقاليد والأعراف، والأساطير المتداولة المحرفة من ديانات قديمة، واتجاهات نفسية ناشئة عن تجارب فردية شخصية، وأيضا من فهم مغلوط للوحى الكريم. وحتى لا تتفرع بنا تلك الصورة إلى قسماتها المتعددة، فسوف نتوقف فى هذا المقال عند الصورة الإجمالية التى رسمها القرآن لتلك المرأة الحكيمة التى تقود قومها باقتدار، ويُطلق عليها «بلقيس» فى كتب التواريخ والتفاسير، لكن القرآن الكريم لم يصرح باسمها، ربما لأن المقصد هو النموذج الذى تقدمه هذه المرأة وليس شخصية بعينها.

يتحدث القرآن الكريم فى سورة النمل عن امرأة تحكم قوما فى مملكة قديمة من ممالك اليمن السعيد، هى مملكة سبأ، وعاصمتها هى «مأرب» التى كانت قد انتقلت إليها من مدينة «صرواح».

وتشير كتب التواريخ إلى أن اسمها «بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل»، وكانت من نسل ملوك تمتعوا بالعز والقوة والجاه والغنى، وصنعوا من مملكتهم دولة مستقرة تنعم بالرفاهية والحكم السياسى الرشيد. ومن المتداول فى كتب التواريخ أن مملكة سبأ باليمن من أعرق الممالك اليمنية العربية وأقدمها، وقصتها من القصص القليلة القديمة التى توجد آثار باقية عليها، ونجدها مذكورة فى آثار ممالك أخرى، مثل آشور، فهى واردة فى بعض النقوش الباقية من عصر الملك سرجون ملك آشور «٧٢٠-٧٠٥ ق.م».

ويبدو أن هذه القصة هى إحدى الدروس الرئيسة من سورة النمل بجوار اشتمالها على قصص أخرى مهمة. وفى تصورى أن الدرس ليس عقائديا فقط، بل أيضا هو درس فى نظم الحكم الرشيد.

ما ملامح تلك المرأة كما ترسمها السورة الكريمة فى الآيات من «٢٣ حتى ٤٤»؟

١ ملكة حاكمة لقومها، «إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ».

٢- غنية ولديها من كل شيء، «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

٣- تملك مظاهر الحكم والسيطرة، «وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

٤- خطؤها يتمثل فى الجانب العقائدي، وليس فى طريقة الحكم، «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

٥- عندما واجهت تحديا يهدد وجودها ووجود قومها، قامت بعرض الموقف على قومها، وطلبت منهم التشاور والمشورة، وتحدثت باحترام عن ملك دولة أخرى، وعرضت رسالته بموضوعية على الرغم من الاختلاف العقائدى والسياسي، «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

٦- ليست مستبدة تأخذ قرارا منفردا، بل القرار يكون نتيجة عملية تشاركية، «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ».

٧- قومها يثقون فيها عن تجربة، فيذكرونها بقوتهم وبأسهم الشديد، ويفوضونها فى الأمر، «قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ».

٨- لا يأخذها غرور القوة، وتدرك قوة خصمها، وتعرف حجمه وكيف يتصرف، كما تعرف نتيجة الصدام معه فى الحالات السابقة، ولا تريد أن تورط مملكتها فى مغامرة حرب نتيجة للتهور مثلما يفعل كثير من الحكام الذين يورطون بلادهم فى حروب تقضى عليها، «قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

٩- تجس نبض خصمها لتعرف مقاصده، وترسل إليه هدية لعله يريد المال ويكف عن حربها، وفى كل الأحوال فسوف تعرف من رد فعله المقصد الذى يرمى إليه، «وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

١٠- ترفض التسرع فى قرع طبول الحرب، وتسعى للتحالف للحفاظ على مملكتها وقومها، وتذهب لسليمان وتدخل معه فى حوار، ويقدم لها سليمان آياته وحججه لحسم المعركة سلميا، «قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ. فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ. قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ».

١١- عندما تبين لها أن مقصد سليمان هو الدعوة لعبادة الواحد الأحد، وقامت لديها الحجة على أن هذا هو الصواب، لم تتكبر ولم تعاند، بل أقرت بخطئها العقائدي، وغيرت عقيدتها وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين، لم تسلم لسليمان بل أسلمت معه لله رب العالمين، «قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

هكذا يتبين لنا أن المرأة أصناف وألوان، وأن الحكم على المرأة بعامة هو حكم كلى متسرع فى التعميم، فهناك فروق فردية بين النساء، مثلما توجد فروق فردية بين الرجال، وإذا كان بين الرجال الضعيف والقوي، فهناك بين النساء الضعيفة والقوية. وإذا كان بين الرجال العاطفى والحكيم، فهناك بين النساء العاطفية والحكيمة. وإذا كان بين الرجال الساذج والحصيف، فهناك بين النساء الساذجة والحصيفة. وإذا كان بين الرجال الظالم والعادل، فهناك بين النساء الظالمة والعادلة. وإذا كان بين الرجال الحاكم غير الرشيد والحاكم الرشيد، فهناك بين النساء الحاكمة غير الرشيدة والحاكمة الرشيدة. وإذا كان بين الرجال من يرجع عن الخطأ عندما يتبين الصواب، فهناك من النساء من ترجع عن الخطأ عندما تتبين الصواب. وإذا كان من الرجال صنف مؤهل للحكم وللمناصب القيادية، فإن من النساء صنفا مؤهلا للحكم وللمناصب القيادية.

هذا قاسم من الصورة الذهنية للمرأة طبقا لمحددات القرآن الكريم فى الخطاب الدينى الجديد، فى مقابل الصورة الذهنية الأسطورية التى رسخها أصحاب الفهم المحمل بالأساطير والثقافات الموروثة من عصور البداوة.

وللحديث بقية.

جامعة القاهرة وعصر الثورة الصناعية الرابعة

٣١ مايو ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

بعد النجاح الذى حققته جامعة القاهرة فى دخول عصر جامعات الجيل الثالث، حسب المقيمين الدوليين المحايدين فى المؤشرات والتصنيفات الدولية، استطاعت الدخول بقوة عصر جامعات الجيل الرابع من بوابته الرئيسة، وهى الثورة الصناعية الرابعة، عبر مسارات العلوم متعددة التخصصات، والتمكين من مهارات خلق القيمة المضافة إلى قطاعات الصناعة والزراعة. وذلك عندما افتتحت أول كلية للنانو تكنولوجى فى الشرق الأوسط بمواصفات عالمية، بعد أن عملت على إنشائها منذ وقت مبكر فى يناير ٢٠١٩.

وتستهدف كلية الدراسات العليا للنانو تكنولوجى، من خلال استخدام التخصصات المتعددة وليس التخصصات الدقيقة، وتوظيف طرق التعليم غير التقليدية، إجراء البحوث المبتكرة التى تخلق سبلاً للمعرفة الجديدة للطلاب والباحثين بالمستوى والعمق الذى يمكنهم من التقدم فى تخصصهم وتطوير التكنولوجيات المتناهية الصغر. ثم نقل هذه المعرفة إلى الصناعة لتتحقق بها الفائدة فى عملية التنمية الشاملة التى تشهدها مصر. وتضم الكلية أكثر من ٢٠ معملاً، تتنوع بين المعامل المتخصصة والطلابية، وتحتوى على عدد من أحدث الأجهزة العلمية المعملية التى تمكن العلماء والباحثين من إجراء أبحاثهم وابتكاراتهم والحصول على براءات اختراع جديدة. ومن أهم هذه المعامل الجديدة: معمل الكيمياء المتقدم، ومعمل البيولوجيا الجزيئية، ومعمل البيولوجيا الدقيقة، ومعمل السمية وزراعة الأنسجة (وهو معمل بالغ التقدم وضرورى لدراسة مخاطر المواد النانوية)، علاوة على ثلاثة معامل كمبيوتر متقدمة لتقديم المحاضرات وعمل نماذج المحاكاة للتجارب الدقيقة. وفى الوقت الحالى تمنح الكلية الدرجات العلمية فى الماجستير والدبلومات المهنية اللازمة لسوق العمل الذى تتطلبه الثورة الصناعية الرابعة، وهى: برنامج ماجستير العلوم فى هندسة التقنيات النانوية، وبرنامج علوم النانو الحيوية، وبرنامجان للدبلومات المهنية، وبرنامج دبلوم تصميم وتركيب أنظمة الطاقة الشمسية، وبرنامج دبلومة مهنية فى استخدام تقنية النانو فى الحفاظ على التراث الأثرى الذى تمتاز به مصر. وفى خطتنا التوسع فى عدد الدرجات العلمية، واتساعها لتشمل درجات مختلفة فى مرحلة البكالوريوس قريبا. وقد تم تكوين هذه الكلية لتكون من أول يوم كلية ذكية smart college، وفق نظام الساعات المعتمدة فى مجال تكنولوجيا النانو المبنية على أنظمة ومعايير الجودة بحيث يصل خريج الكلية إلى مستوى المنافسة العالمية فى أسواق العمل المحلية والإقليمية والعالمية.

ولم يكن دخول جامعة القاهرة عصر الثورة الصناعية الرابعة من خلال النانو تكنولوجى فقط، بل أيضا من خلال كلية الحاسبات والذكاء الاصطناعى. وأذكر فى ديسمبر ٢٠١٨ خلال كلمتى الافتتاحية بالمؤتمر الدولى الـ ١١ للمعلوماتية والنظم الذى عقدته كلية الحاسبات والمعلومات بالجامعة وقتها، بمشاركة العديد من الشركات العالمية والجهات الحكومية، أكدت ضرورة العمل على تطوير الكلية لتصبح كلية للحاسبات والذكاء الاصطناعي، لا سيما أن العالم يشهد تطورًا كبيرًا فى تكنولوجيا المعلومات ووظائف المستقبل كتخصصات الذكاء الاصطناعي، والبيج داتا، والبلوك تشين، والريبورتات. واقترحت عدة سيناريوهات أمام الكلية لدراستها. وبالفعل كان تجاوب الكلية عاليا، حيث تم العمل بقوة على هذه السيناريوهات ودراستها من لجان متخصصة، حتى تم التوصل إلى السيناريو الأفضل للنموذج الذى يتم بناء عليه التطوير، وبالفعل تحولت كلية الحاسبات والمعلومات إلى كلية الحاسبات والذكاء الاصطناعى لتكون أول كلية تدخل عصر الذكاء الاصطناعى فى مصر، وتصبح هى النموذج الاسترشادي. علاوة على تطوير معهد الإحصاء ليصبح كلية الإحصاء للدراسات العليا والتى وظفت الذكاء الاصطناعى فى برامجها الدراسية وأبحاثها لتدخل عصرا جديدا فى العمليات الإحصائية. ولم يكن دخول عصر الذكاء الاصطناعى من أجل التعليم فقط، بل كان هذا من أجل توظيف الذكاء الاصطناعى فى البحث العلمي. وعلى سبيل المثال، قد نجح باحثونا فى إنشاء محرك بحثى لإجراء مسح مرجعى عن كورونا عالميا باستخدام الذكاء الاصطناعي، وأيضا من خلال دعم مفهوم العلوم المتعددة التخصصات، حيث توصل فريق بحثى مشترك من كليتى الصيدلة والحاسبات والذكاء الاصطناعي، إلى إنشاء محرك بحثى وظفوا فيه تقنيات الإحصاء والذكاء الاصطناعى لإتاحة المسح المرجعى على أبحاث كورونا، والوصول إلى خلاصة هذه الأبحاث [illegible]، ويبرز المحرك البحثى ثلاثة موضوعات هى الأكثر أهمية فى الأبحاث، وهى: الأعراض وتشخيصها، والعلاجات المتاحة، والدراسات السريرية على العلاجات واللقاحات. وكان نجاح جامعة القاهرة فى دخول عصر النانو تكنولوجى والذكاء الاصطناعى أحد أهم الأسباب التى أدت فى النهاية إلى تحسين مخرجات التعليم والبحث العلمى وإعطاء قيمة مضافة، وتحقيق تقدم فى كل التصنيفات الدولية، بل وأحد أسباب تقدم مصر فى المؤشر الدولى «جاهزية الحكومة للذكاء الاصطناعى» . كما انعكس ذلك على تصنيف جامعة القاهرة دوليا، حيث تقدمت فى تصنيف [illegible] للتخصصات ٢٠٢٠ فى قطاع الهندسة والتكنولوجيا، كما تقدمت فى تخصص علوم الحاسب ونظم المعلومات، لتحتل المركز الأول على مستوى الجامعات المصرية بالظهور فى الفئة فى المركز ١٠١ من بين ثلاثين ألف جامعة على مستوى العالم. ولم يكن دخول جامعة القاهرة عصر الثورة الصناعية الرابعة مقتصرا على ذلك، بل كان أيضا من خلال تغيير نظم الإدارة لتواكب نماذج الإدارة فى جامعات الجيل الرابع، بالإضافة إلى إنشاء العديد من البرامج الدراسية المتقدمة فى العلوم المتعددة التخصصات فى العديد من الكليات. وقد أوشكت جامعة القاهرة الدولية أن تكتمل، تلك الجامعة التى تم التخطيط لها منذ وضع حجر الأساس فى أبريل عام ٢٠١٨ لتكون أول جامعة للبرامج تقوم على درجات علمية مزدوجة ومشتركة مع الجامعات العالمية المتقدمة. والآن تطرق جامعة القاهرة أبواب علوم وتكنولوجيا الفضاء حيث تعمل من فترة غير وجيزة على تأسيس كلية متقدمة فى هذا المجال، بجوار إنشاء معامل وفضاءات للابتكار المفتوح.

ولم تخط جامعة القاهرة هذه الخطوات عشوائيا، بل على أساس خطة استراتيجية موسعة وخطة تنفيذية لها جداول زمنية محددة، ومرتبطة ارتباطا وثيقا بخطة الدولة المصرية للتنمية المستدامة، والغايات الاستراتيجية للأمن القومى المصرى، ورؤية مصر ٢٠٣٠.

جامعة القاهرة تجدد نفسها

٦ يونيو ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تعمل جامعة القاهرة منذ فترة على تجديد نفسها عبر الدخول إلى عصر جامعات الجيل الرابع «fourth generation universities»، وتبتغى من هذا فى المقام الأول المشاركة فى تحقيق الغايات والأهداف القومية للدولة الوطنية المصرية، تلك الدولة التى أصبحت تملك طموحات كبيرة، كما صارت تمتلك القدرة على تحقيقها يوما بعد يوم، فى منظومة تقدمية لافتة.

وعلى هذا الأساس القومي، أقامت جامعة القاهرة خطتها الإستراتيجية والتنفيذية (٢٠٢١/ ٢٠٢٥) على مواصفات جامعات الجيل الرابع؟

والسؤال: ما مواصفات جامعات الجيل الرابع؟

يمكن القول إن جامعتنا ترفض منهجية التلقين والحفظ والتقليد سواء للقدماء أو الغرب والشرق، وهى لا تقدس إلا المقدس الإلهى ذاته مع إعمال العقل النقدى والإبداعي، أما كل ما هو بشرى فهو محل للفحص وقابل للصواب والخطأ، وما تاريخ العلوم إلا تاريخ الخطأ والصواب. وتعمل جامعتنا على مراجعة نفسها باستمرار؛ ومن ثم التطوير الدائم واللانهائي، فالكمال غاية لانهائية يجب السعى الدائب لها عبر التاريخ وعبر كل مراحله. ومن هنا فنحن ضد الجمود وضد ادعاء الكمال أو القداسة لأنفسنا؛ فلا قداسة إلا لله، ولا كمال إلا له سبحانه.

وفى هذه المرحلة من تاريخ تطور جامعتنا، نجد أنها نجحت إجمالا فى التحول إلى جامعة من الجيل الثالث، وهذا ما يوجب علينا التفكير الجاد فى فريضة جديدة للتحول إلى مرحلة أعلى. وقد اخترنا أن تكون المرحلة الجديدة هى الدخول فى عصر جامعات الجيل الرابع دخولا خاصا ومختلفا، يراعى السياق المصرى فى هذه المرحلة التاريخية التى تمر بها بلادنا، كما يوظف معايير وخصائص الجيل الرابع لخدمة الأمن القومى المصرى بمفهومه الشامل. إن مفهوم جامعات الجيل الرابع مفهوم عالمي، لكننا سوف نطبقه فى إطار الخصوصية المصرية دون التخلى عن السياق العالمي؛ وهذا لأننا لا نعمل بمعزل عن العالم وفى الوقت نفسه لا ننسى خصوصيتنا النوعية specificity.

إن نقطة تركيز الجامعة ليست الانخراط كلية فى النظام العالمي، بل الانخراط الجزئى عالميا، مع امتلاك جسور دولية إستراتيجية وشبكة شراكات محلية قوية strong local network ، والمشاركة فى قيادة النظام البيئى المحلى local ecosystem. ومن هنا لا تبعد خصائص جامعات الجيل الرابع عن التحدى القومى الذى نواجهه، خاصة أنها تركز على النظام المحلى غير المنفصل عن السياق العالمي، وكأننا نعود إلى المقولة الملهمة (إن التعمق فى المحلية يقود إلى العالمية)، تلك المقولة التى سبق إليها بأعماله خريج قسم الفلسفة جامعة القاهرة الأديب نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل العالمية فى الآداب عام ١٩٨٨ بأعماله المتجذرة فى الحارة والشارع المصري.

إننا نهدف فى هذه المرحلة إلى جعل التعليم والبحث العلمى قائما على طريقة الابتكار، واستحداث ساحات للابتكار المفتوح open innovation spaces للمساهمة فى عملية التنمية وحل المشكلات لتحقيق الغايات الإستراتيجية القومية للوطن، بينما كانت «جامعات الجيل الأول»تهدف فقط إلى التعليم، وتهدف «جامعة الجيل الثاني» إلى التعليم مع البحث العلمي، فى حين تهدف «جامعة الجيل الثالث» إلى الجمع بين التعليم والبحث العلمى واستغلال المعرفة.

ودورنا هو (التمكين من مهارات خلق القيمة) للمشاركة فى تحقيق التنمية القومية الشاملة لبلدنا، بينما كان دور جامعات الجيل الثالث هو (خلق القيمة)، أما دور جامعات الجيل الثانى فهو (اكتشاف الطبيعة)، بينما كان دور جامعات الجيل الأول فى العصور الوسطى هو (الدفاع عما تعتقد أنه الحقيقة). ولعلكم تلاحظون أعزائى القراء- أن بعض الجامعات فى عصرنا لا تزال تدور فى أفق جامعات العصور الوسطى وتدافع عن وجودها فيه دفاعا مقدسا ومعتقدة أن التاريخ قد توقف عند العصور الوسطى! وتتخيل أن دورها هو استعادة هذا التاريخ والعودة للخلف! منكرة سنن الله فى التطور، وغير مدركة أنه سبحانه (..وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (سورة النحل، من آية ٨)، و(..كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ) (سورة الرحمن، من آية ٢٩).

وفى الوقت الذى لا تزال فيه تلك الجامعات تدور فى فلك جامعات الجيل الأول المدافعة عما تعتقد أنه الحقيقة النهائية، فإن هناك جامعات قد تحولت إلى الجيل الرابع الساعى إلى الابتكار المفتوح والتمكين من مهارات خلق القيمة.

فما الفرق بين (خلق القيمة) الذى يتشكل حوله دور جامعات الجيل الثالث و(التمكين من مهارات خلق القيمة) الذى يتجسد فيه دور جامعات الجيل الرابع؟

ربما يمكن القول بلغة بسيطة إن (خلق القيمة) على سبيل المثال هو (صناعة الماكينة) التى تصنع المنتج، بينما التمكين من مهارات خلق القيمة هو أن تعلم الآخرين كيف يصنعون هذه الماكينة وتعلمهم مهارات استخدامها. وبلغة أكثر شعبية، كان يقال (أعطنى سنارة ولا تعطنى سمكة)، فالسنارة هى القيمة والسمكة هى المنتج. وكان يُنظر لهذه المقولة بوصفها حكمة، أما الآن فالأمر أبعد من ذلك بكثير؛ حيث صار الهدف هو التمكين من صناعة القيمة، بمعنى تعليم الآخرين مهارات صناعة القيمة. وهنا تنشأ حكمة جديدة وهي: (لا تعطى الآخرين سنارة، بل علمهم كيفية صناعة السنارة وعلمهم مهارات كيفية استخدامها فى الصيد). ويمكن القول إن هناك درجات للعطاء، أولاها- أن تعطى للآخرين المنتج جاهزا، ثانيتها- أن تعطيهم الماكينة التى تصنع المنتج، ثالثتها- أن تعطيهم، وهو العطاء الأهم، مهارات طريقة صناعة الماكينة ومهارات استخدامها فى الحصول على المنتج. وفى تصورى هذا هو الطريق الجديد للتقدم والمشاركة فى صناعة العلم النافع.

ومنهجنا كجامعة تنتهج نهج جامعات الجيل الرابع، ليس مدرسيا مثل جامعات الجيل الأول، وليس قائما على التخصصات الدقيقة أو أحادية التخصص مثل جامعات الجيل الثاني، ولا على العلوم بينية التخصصات مثل الجيل الثالث، بل قائم على الابتكار متعدد التخصصات لخدمة عمليات التقدم القومي. وهو ما بدأنا به بالفعل بتأسيس كلية النانو تكنولوجي.

وفيما يتعلق بطريقتنا مع تنمية رأس المال البشرى، فالمستهدف ليس فقط تخريج موظفين وباحثين فقط، بل أيضا تخريج رواد أعمال وفنانين وعلماء ومشاركين فى النظام البيئى وفق الخصوصية المصرية. والتوجه نحو نظام بيئى فعال وواسع، مع زيادة الارتقاء باللغة الإنجليزية بوصفها لغة العلوم فى العصر الحالى دون التخلى عن الارتقاء بلغتنا العربية ومحاولة تطويرها لتعود لغة للعلوم كما كانت فى الماضي، ومن هنا كان مشروعنا لتطوير اللغة العربية الذى تم إطلاقه هنا على صفحات جريدة الأهرام العريقة منذ فترة.

وفى الجانب الإداري، تطوير النهج الإدارى الذى بدأناه منذ مدة غير وجيزة، والذى يعتمد على الحوكمة واللامركزية، والتخطيط المسبق، والمتابعة، والتدخل عند وجود معوقات لإزالتها، والتدخل أيضًا عند حدوث خروج عن الخطط المقررة. مع المرونة الكافية التى تراعى التحديث اللازم للخطط كما تراعى الاختلافات النوعية بين المؤسسات التابعة.

إعادة بناء الإنسان فى الجمهورية الجديدة

٢٧ يونيو ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

التأكيد ثم إعادة التأكيد من اللوازم فى القضايا الكبرى، ولعل هذا أحد أسرار التكرار فى القرآن الكريم؛ حتى تصل الرسالة إلى بؤرة الوعي.

وإحدى أهم القضايا التى تقوم عليها الجمهورية المصرية الجديدة، هى قضية إعادة بناء إنسان مصري، بل أتصور أنها القضية الأهم، فالإنسان هو محور الارتكاز، وبدونه سوف تفشل أية محاولة للإصلاح.

ولذا يجب أن يتكثف الجهد من أجل تنمية الموارد البشرية لكى تكون المرتكز فى تأسيس الجمهورية الجديدة، ويأتى التعليم بوصفه المسار الطبيعى لتكوين «المواطن الصالح» الذى يشكل لبنة الدولة.

إن بناء دولة جديدة ليس بالأمر الهين، والأمر يقتضى ثورة تعليمية شاملة لتعزيز قدرة الطلاب والباحثين على تحقيق الغايات القومية الحيوية؛ مما يستلزم تغييرا جذريا فى المحتوى التعليمي، ومنهج التفكير، ونظم الدراسة، وتشجيع الابتكار متعدد التخصصات، وإنشاء حاضنات للابتكار والإبداع، وتحفيز التكنولوجيا وتوطينها لمستلزمات البحث والتطوير، والسعى للمساهمة فى صناعة التكنولوجيات الجديدة.

ويجب تركيز الاهتمام فى التعليم على التمكين من مهارات إنتاج القيمة، وليس التركيز على الوسائل والشكليات. إن التركيز على الوسائل والشكليات، وإهمال المحتوى التعليمى وطرق التفكير، سوف يوقعنا فى معضلات حقيقية. وسوف يكون حالنا مثل حال أناس توشك قواعد بيتهم على الانهيار فيقومون بطلائه وهم يعتقدون بذلك أنهم ينقذون بيتهم!

ولذا تستهدف خطة جامعة القاهرة والتى بدأتها منذ مطلع ٢٠٢١، من بين ما تستهدف، مواصلة تأسيس خريج يتمتع بالعقلانية النقدية، والتوسع فى إنتاج عقول مفتوحة، وإزاحة التعليم المولد للإرهاب، مع التوسع فى الأنشطة الإبداعية، وإعادة تشكيل الوجدان، ونشر أخلاق التقدم، وتطوير العقل المصرى وتغيير طريقة التفكير عند الطالب، وبناء شخصية مسئولة.

ولا يمكن تجاوز العقم التعليمى دون التحول إلى خصائص جامعات الجيل الرابع، ومن أهمها تمكين مهارات خلق القيمة المضافة للدولة والمجتمع والعالم طبقا للغايات الإستراتيجية الإحدى عشرة للدولة المصرية، واستهداف تنمية رأس المال البشرى للدولة الوطنية من المهنيين والعلماء ورواد الأعمال والفنانين والعملاء والمشاركين فى النظام البيئي، وترسيخ مفاهيم التعليم القائم على البحث والاكتشاف، وتشجيع التعليم المحفز للابتكار المفتوح.

لقد أصبح من الضرورى أن يكون على رأس أولوياتنا، تطوير المحتوى التعليمى طبقًا للمعايير الدولية وفى ضوء محددات الأمن القومى الشامل. علاوة على تطوير أدوات ووسائل التعليم والتعلم طبقًا للمعايير الدولية، واستحداث مناهج جديدة عصرية تفيد من مناهج الدول المتقدمة، وتطبق طرق التعلم الحديثة التى تستهدف تكوين عقول منهجية مفتوحة، وبناء شخصية إنسانية متوازنة الأركان: روحًا وجسدًا ووجدانًا ونفسًا تحت قيادة عقل واع يقود ويوجه.

ومن المهم العمل طبقا للمعايير الحاكمة للتصنيفات الدولية فى ضوء المصلحة الوطنية، والسعى لتدويل مقررات الجامعة، ولعل من الخطوات اللازمة فى هذا هو مقارنة المحتوى التعليمى ونظم التعليم مع أفضل ١٠ جامعات عالمية فى ضوء محددات الغايات الإستراتيجية للجمهورية الجديدة، ولابد أن تكون هذه المقارنة فى التوصيف والمحتوى دقيقة وشاملة وتفصيلية من أجل تحديث مناهجنا ومقرراتنا ليس فى الأسماء فقط، بل فى المحتوى التعليمى الدقيق وفى عمليات التقويم ونظم التعليم والتعلم. ولذا فسوف نبدأ فى هذا العمل بشكل مؤسسى ومن خلال لجان علمية فى كل التخصصات، حتى نضمن مواكبة مناهجنا ومقرراتنا لمستجدات العلوم عاما بعام. فلابد أن نرى أنفسنا فى مرآة الآخر المتقدم، ولابد أن نقيس أنفسنا بمعايير الجامعات الدولية العشرة الأولى. وفى كل الأحوال لا بد من التوافق فى عملية تدويل المناهج ونظم الدراسة مع الغايات الإستراتيجية للدولة المصرية ومحدداتها فى التعاون الدولي.

ولن يكون هذا نقلا واستنساخا، بل هضما وتمثلا وإبداعا وعملا؛ فلا قيمة لمواكبة الحداثة العلمية بدون التركيز فى الوقت نفسه على قيم العمل والابتكار والإبداع، من أجل تطوير الوعى والعقلية العلمية، وتفعيل دور العقل الناقد والإيجابى والمبدع ليحل محل العقل المتلقى والسلبى أمام المادة العلمية سواء الوافدة من الأمم المتقدمة أو القديمة الآتية من أسلافنا العظام. فبدون تنمية العقل لا يمكن الاستفادة من العلوم؛ لأن العقل غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية كما أشار الحارث بن أسد المحاسبي. (انظر كتاب: نحو تأسيس عصر دينى جديد).

إن روح السوق والتنمية ينبغى ألا تنسينا «البعد الغائب» فى تنشئة الطالب، وهو الوجدان بوصفه الميدان الخصب للخيال والإدراك واللذين بدونهما لن يستطيع الإنسان أن يعيش من أجل المستقبل؛ مما يحتم عدم إغفال تعليم الأنشطة الإبداعية وممارسة الفنون والإبداع الأدبي، ولعل إنشاء مسرح دولت أبيض، والذى أوشك على الانتهاء، خطوة على هذا الطريق.

إن تنمية المواهب الثقافية والفنية والرياضية والأدبية وصناعة النجوم باتت ضرورة ملحة؛ ليس فقط من أجل تحويل «وجدان الطالب» وبناء شخصية متكاملة، ولكن أيضا لأن الطبيعة لا تعرف الفراغ، وإذا لم نملأ وجدان الطلاب بمكونات إيجابية؛ فسوف يدفعهم هذا إلى الممارسات الخاطئة سواء فى السلوك أو الفكر؛ لأن الطلاب أكثر عرضة للتأثر بالعوامل السلبية، لا سيما طلاب المدن الجامعية، نظرا لابتعادهم عن الرعاية الأسرية المباشرة؛ فضلا عن المحاولات المستمرة للتأثير فيهم من قِبَل الجماعات المتطرفة؛ مما يحتم ضرورة تحصينهم.

ولذا، فلا بد من الارتقاء بالحياة الطلابية على المستوى العقلى والنفسى والوجدانى من خلال تنمية الذات والمهارات الشخصية للطالب لإعداده لكى يصير مواطنا متكامل الشخصية، فصنع الشخصية القادرة على العمل السياسى والفكرى والإدارى هو جوهر مهمة العملية التعليمية؛ لأن التعليم هو العامل الأكثر تأثيرا فى معادلة الشخصية. وهنا يأتى دورنا فى تكوين شخصية تتحكم فى مستقبلها، تنظر له ولا تخشى خوض تجاربه على أساس من الإرادة الحرة واستقلال الذات. وبهذا يتكون لدينا رأس مال بشرى Human Capital حقيقى يتمثل ليس فقط فى «كم» الأفراد ذوى المهارات والقدرة على الإنتاج والمتعلمين والمثقفين، بل يتمثل كذلك فى «نوعيتهم وكفاءتهم».

لكل هذا نحلم بتكوين جامعة من الجيل الرابع، تعتمد بشكل جوهرى على تمكين مهارات خلق القيمة، والمساهمة فى إعادة بناء الإنسان المصرى بوصفة الأساس المكين الذى تقوم عليه الدولة الوطنية.

الجامعة والأمن القومى الشامل

١١ يوليو ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن الصراط المستقيم ليس فقط في الآخرة، بل هو أيضا في كل طريق قويم يوصلك إلى الأهداف الرشيدة في الحياة الدنيا، فمفاهيم الدين وعقائده جاءت من أجل صلاح الدنيا ونوال نتائجها المباشرة، مثلما جاءت من أجل نوال النتائج البعيدة في الآخرة.

وإذا كنا نبحث عن تحقيق التنمية الشاملة، ودولة الرفاه الاجتماعي، ووطن يمتلك القدرة والمقدرة، ومجتمع يمتلك مقدراته ويتحكم في أمنه القومي الشامل؛ فإن الصراط المستقيم المُوصل إلى ذلك هو: تعليم متطور المحتوى، وبحث علمي رصين، وابتكار مفتوح يخدم بشكل مباشر الغايات الإستراتيجية للأمن القومي الشامل.

إن الأمن القومي كما تم التأكيد من سنوات بعيدة- اتسع ليشمل امتلاك القدرة الشاملة للدولة وامتلاك الأدوات المؤثرة والقادرة على حماية مقدرات الوطن ومعتقداته وقيمه وأراضيه ومصالحه السياسية والاقتصادية والاجتماعية من التهديدات الخارجية والداخلية. بل اتسع مفهوم الأمن القومي ليشمل مختلف الأبعاد التنموية والتقدمية.

وهذا يجرنا مباشرة إلى مسارات التعليم والبحث العلمي والابتكار المفتوح، بوصفها مسارات في الصراط المستقيم نحو تحقيق الأمن القومي بمفهومه التقدمي الشامل، وبوصفه تنمية علمية واقتصادية واجتماعية وسياسية، وتنمية للموارد البشرية. وفي القلب من ذلك كله إعادة بناء الإنسان المصري.

ومن هنا يجب أن ترتبط المناهج التعليمية والخطط البحثية وعمليات الابتكار بمحددات ومتطلبات الخطة الشاملة للدولة، ليس كشعار مرفوع، وإنما عبر خطط إستراتيجية نوعية للمؤسسات الوطنية. ويجب أن تُترجم هذه الخطط الإستراتيجية النوعية إلى خطط تنفيذية، ثم تُحول إلى خطط تشغيلية، كلها تصب في تحقيق الغايات الإستراتيجية للأمن القومي الشامل لوطننا.

ولذا من الخطأ الانخراط في عملية العولمة والتدويل دون مراعاة الخصوصية المصرية، فالخطط العالمية مرتبطة بخطط الدول الكبرى لتحقيق مصالحها النوعية. ويجب علينا أن نتعلم منها ما يصب في تحقيق مصالح بلادنا، لا أن ننخرط فيها انخراطا كليا، بل أن تكون لنا خصوصيتنا في ضوء ظروفنا التاريخية ودون انعزال عن الفكر العالمي.

إن مواكبة جامعتنا للتحول النوعي للجامعات على مستوى العالم نحو عصر الجيل الرابع، لا تنسينا خصوصيتنا، ولا تجعلنا نبتعد عن حتمية الارتباط القوي بمختلف مؤسسات الدولة، والسير معا نحو تحقيق الغايات الإستراتيجية للأمن القومي الشامل، وإلا فإن جهود عملية التنمية الشاملة والحفاظ على قوة الوطن وصلابته سوف تتأثر تأثرا كبيرا، وسوف يكون أمام خصوم الوطن فرص كبيرة للوصول إلى أهدافهم، لاسيما مع تقنيات وآليات حروب الجيل الرابع اللامتماثلة.

ولا شك أن دولتنا الوطنية الفتية أنجزت ولا تزال تنجز الكثير في تحد قوي وقادر وطبقا لرؤية إستراتيجية قومية رفيعة. وتأسيسا على تلك الرؤية، يجب أن تضع أي خطة إستراتيجية سواء كانت تعليمية أو غيرها- في اعتبارها الغايات الإستراتيجية القومية المنبثقة عن تلك الرؤية، ولعل من أهمها:

١ـ الانتقال من مصاف الدول النامية إلى مصاف الدول المتقدمة

٢ـ الحفاظ على هوية الشخصية المصرية

٣ـ الحفاظ على القوى الناعمة للدولة الثقافية والعلمية والإعلامية

٤ـ الحفاظ على الريادة المصرية

٥ـ الحفاظ على الثروات القومية للدولة واستغلالها

٦ـ حماية المقدرات اللامتماثلة (الأجيال الجديدة- البيولوجية- الاتصالات - الشبكات القومية- تغير المناخ...إلخ).

ولذا قمنا في جامعة القاهرة بدراسات عديدة وموسعة لمفهوم جامعة الجيل الرابع وخصائصها، وقمنا بوضعها في سياق الغايات الإستراتيجية للأمن القومي المصري في مفهومه الشامل ومحدداته الرئيسة، وطبقا لرؤية مطورة في ضوء سياق الخصوصية المصرية، وبما لا يُخرج هذا المفهوم من بُعده العالمي؛ لأننا لا نعمل بمعزل عن العالم في الوقت الذي لا نتخلى فيه عن خصوصيتنا وغايتنا القومية الإستراتيجية في هذه المرحلة الفارقة التي يمر فيها وطننا نحو المستقبل.

وهنا يبرز الدور الريادي والمسئولية القومية للجامعة. ولذا تسعى جامعة القاهرة إلى تطوير دورها الحالي إلى المساهمة في تحقيق الغايات القومية والأهداف الوطنية. وبعد النجاح في الدخول إلى عصر «جامعات الجيل الثالث»؛ فإنها دخلت الآن بقوة في قلب «جامعات الجيل الرابع»، عندما اقتحمت عصر الثورة الصناعية الرابعة من خلال إنشاء كلية النانو تكنولوجي، وتطوير كليتها «الحاسبات والمعلومات»لتصبح كلية «الحاسبات والذكاء الاصطناعي»وتصير هي النموذج الاسترشادي، ومن خلال البدء في تأسيس كلية تكنولوجيا وعلوم الطاقة الجديدة والمتجددة، وكلية تطبيقات الذكاء الاصطناعي والروبوت، وكلية علوم وتكنولوجيا الفضاء، وتشكيل الفرق البحثية متعددة التخصصات في دراسة جائحة كورونا ٢٠٢٠، والانتقال بالبحث العلمي نحو معايير أكثر صرامة، والخروج التدريجي من دوائر المدارس البحثية المحدودة الأفق والمحدودة الأدوات، سواء كانت مدارس عتيقة أو مدارس محلية تنظر إلى الكم أكثر مما تنظر إلى الكيف!

فضلا عن إنشاء المجلة الدولية متعددة التخصصات في الإنسانيات وتطبيقات العلوم الاجتماعية. ولا شك أن العلوم متعددة التخصصات هي من أخص خصائص جامعات الجيل الرابع، ولا فصل عندنا بين الهدف والمنهج، فإذا كان الهدف هو تطوير (التعليم والبحث) للتوجه نحو الابتكار المفتوح لتحقيق الغايات الاستراتيجية القومية للوطن، فإن المنهج هو ابتكار متعدد التخصصات لخدمة عمليات التقدم القومي.

ومن أسف فلا تزال لدينا طائفة توقف فكرُها عند حدود مفاهيم «جامعات الجيل الثاني»التي يقوم فيها التعليم والبحث على التخصصات الدقيقة، سواء كجزر منعزلة عن بعضها البعض من جهة، أو كجزر منعزلة عن الغايات الإستراتيجية للأمن القومي الشامل، بل هناك من يستميت في محاربة التوجه نحو العلوم متعددة التخصصات وينتقص من قدر البحوث والمجلات العلمية متعددة التخصصات. وهنا نجد متلازمة ضيق الأفق الإداري وضيق الأفق العلمي، وكأن البحث العلمي يعاني عند البعض تداعيات العقل المغلق والمنغلق التي تسيطر على الخطاب الديني التقليدي، فالعقلية بنيتها واحدة وتعاني ذات المرض: العقل المغلق الجامد والقائم على فكرة الجزر المنعزلة.

وعلى الرغم من سعينا للانتقال إلى مرحلة جديدة، فإن خطتنا الجديدة هي بناء على خطتنا السابقة، وثمة خيوط مشتركة مستمرة، لاسيما أننا عملنا على تحقيق بعض عناصر جامعات الجيل الرابع بجوار عناصر جامعات الجيل الثالث. فضلًا على أن الغايات الإستراتيجية القومية حاضرة في الخطتين، لكنها أكثر بروزا في خطتنا الجديدة. فنحن مستمرون في النظر إلى التعليم والبحث العلمي والابتكار كمسارات في الصراط المستقيم نحو تحقيق «الأمن القومي» بمفهومه التنموي الشامل الذي يتجاوز مفهوم الحماية بمعناها التقليدي، إلى مفهوم التنمية الشاملة وبناء الدولة الوطنية المصرية القوية القادرة على حجز مكان رفيع لها في محيطها الإقليمي والدولي.

التعليم والفجوة المعرفية

٢٥ يوليو ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لابد من مبادرة جديدة لتأسيس محتوى تعليمى وبحثى جديد فى كل التخصصات فى ضوء اللحظة الراهنة للتقدم العالمي، وعلى أساس التحديات القومية النوعية التى تواجه بلادنا، مع قياس أنفسنا على أفضل عشر جامعات فى العالم، فيجب أن نرى أنفسنا فى مرآة أفضل ١٠ جامعات فى العالم، لا أن نرى أنفسنا على صفحة المياه مثل «نركسوس» فى الأساطير اليونانية الذى ظل ينظر إلى صورته المنعكسة على صفحة مياه البحيرة، معجبا ومقدسا لها، وظل على هذا الحال حتى مات!

وأتصور أن فى عالمنا العربى المعاصر، نفرا زاد مرضُهم النفسى عن مرض «نركسوس»، حيث إن بعضنا لا ينظر حتى إلى صورته هو نفسه، بل يتجمل بصورة أجداده ويحسبها صورته هو نفسه! فتضخمت ذاته تضخما مرضيا، وهو المرض الذى يعانى منه ذلك المتفاخر بمجده القديم مع أنه فى ذيل التصنيفات الدولية، بل خارجها! وطوال الوقت يتحدث عن عظمته ومجده، بينما هى عظمة أجداده ومجدهم، مثل ذلك الواهن الضعيف الذى يقول طيلة الوقت: أنا قوى وعظيم! إن الذى يستقى مجده من أجداده ما هو إلا عاجز فى الحقيقة، لكن نرجسيته المزيفة تجعله منفصلا عن الواقع!

ومن هنا، فنحن نريد أن نعرف ذاتنا على حقيقتها، وعلى الرغم من كل ما قمنا به من تطوير فى جامعتنا، نؤمن بأن هذا غير كاف، بل لابد من التطوير المستمر، فالتطور أخص خصائص الأفكار الحية، والجمود أخص خصائص الأفكار الميتة. وقل مثل ذلك الفرق فى حملة أى نوعين من هذه الأفكار، إنه الفرق بين مَن يحملون أفكارا حية ومَن يحملون أفكارا ميتة، والغريب أن الذين يحملون أفكارا ميتة شأنهم شأن الأشباح التى تتصرف على أنها كائنات حية من لحم ودم فى الروايات الأسطورية!

وحتى لا نقع فى الفخ العقلى الذى وقع فيه أولئك النفر من الأحياء الأموات، فإننا نتطلع إلى إطلاق مبادرة فى جامعتنا نجدد بها أنفسنا مرة أخرى تجديدا حقيقيا .

فلا شك أن التعليم والبحث العلمى يحتاج إلى اتخاذ قرارات جريئة نجمد من خلالها تدريس المناهج الدراسية والموضوعات البحثية التى لا علاقة لها بالواقع أو المستقبل، ونستبعد التخصصات التى تحلق خارج التاريخ فى موضوعات مستهلكة، ونقوم بعمليات موسعة ومؤسسية لوضع محتوى تعليمى جديد وخريطة بحثية جديدة، علاوة على فتح تخصصات جديدة تتطلبها الثورة الصناعية الرابعة، وتوجبها طبيعة التحديات التى تواجه الدولة الوطنية وعملية التنمية وبناء مواطن مصرى جديد .

إن تجديد القديم فى المحتوى التعليمى والبحثى لم يعد مجديا، فهو مثل تطبيقات الحاسوب التى تمر بتحديثات كثيرة، لكنك تكتشف فى لحظة معينة أن التحديث لم يعد مجديا، وأنك بحاجة إلى أنواع جديدة كلية من تطبيقات الحاسوب. أو قل إنك تكتشف أن سيارتك القديمة لم يعد مجديا معها كل عمليات التجديد والتحديث، وأنك بحاجة إلى سيارة جديدة كلية. الأمر لا يختلف كثيرا فيما يتعلق بالمناهج الدراسية والمحتوى التعليمى والخريطة البحثية.

وثمة سؤال يطرح نفسه، هل تمت مراجعة توصيفات المناهج ومحتواها العلمى عندنا على توصيفات ومحتويات المناهج التى تدرس بالفعل فى كبرى الجامعات العالمية؟ وهل تمت مراجعتها على خريطة التحديات القومية؟ وهل قمنا أصلا برسم خريطة هذه التحديات؟

ولا أريد أن أقع مثل غيرى فى عملية جلد للذات أو عملية تعميم مفرطة ومتسرعة مثل أولئك الذين لا يرون شيئا إيجابيا فى أية ظاهرة، فلا شك أن عمليات تجديد موسعة وكبرى تمت فى السنوات الماضية فى كثير من الملفات، ولا شك أيضا فى أن كثيرا من التخصصات تقوم بمواكبة كل جديد، لكن تظل محاولات تغيير المحتوى التعليمى والبحثى تغييرا جذريا وشاملا لم تتحقق حتى الآن. وفى جامعة القاهرة انتهجنا أساليب متعددة لفعل ذلك، وتم انجاز الكثير فى تحديث المقررات واللوائح والبرامج الدراسية وإنشاء تخصصات وكليات جديدة، لعل من أهمها: إدخال دراسة التفكير النقدى وريادة الأعمال فى كل الكليات والمعاهد، وتطوير ١٣٢٥ لائحة وبرنامجًا لتتلاءم مع التعليم المدمج والهجين كأول جامعة مصرية فى أغسطس ٢٠٢٠، وإطلاق أول كلية من نوعها فى مصر والشرق الأوسط للنانو تكنولوجي، وإطلاق أقوى منصة تعليمية ذكية متكاملة وتطوير نظم الامتحانات والتقويم مع بلاك بورد العالمية، واستحداث أول برامج للأمن السيبرانى والذكاء الاصطناعى والإعلام الرقمى والأمن المعلوماتي، وإطلاق ما يزيد على ٣٠٧ من البرامج واللوائح والدبلومات المهنية، والتوسع فى تخصصات وظائف المستقبل، فضلا عن إجراءات لتطوير البرامج والمقررات التى تفتح آفاقا لفرص عمل للخريجين محليا ودوليا، وإطلاق برامج ماجستير مهنى لريادة الأعمال واقتصاديات التنمية والصحة المزدوجة مع جامعات أجنبية مرموقة، إلخ.

لكننا على وعى بأن كل هذا غير كاف، وأنه لابد من قطع خطوات وخطوات أخرى كبيرة على العديد من المستويات، ولعل من أهمها إطلاق مشروع بحثى كبير لرصد وتوصيف وتحليل التخصصات والمناهج الدراسية العلمية فى الجامعات العشر الأكثر أهمية وبروزا فى العالم فى ضوء التصنيفات العلمية فى العالم، وأن ننظر فى كل تخصص من حيث مراكز الاهتمام العلمى التعليمية والبحثية الرئيسة والفرعية، والمقررات الدراسية وتوصيفها وأساليب التعليم والتدريب وتقنيات التعليم المستخدمة.

وكذلك رصد برامج واهتمامات عشرة من المراكز البحثية ذات التميز العلمى على مستوى العالم، وعشر من الدوريات المتخصصة المحكمة ذات معامل التأثير الأقوى فى العالم.

وذلك بهدف رسم خريطة علمية للفكر العلمى والتكنولوجى العالمى بوضعه الراهن ومقارنتها بأوضاعنا فى جامعة القاهرة لتحديد الفجوات المعرفية والتكنولوجية بيننا وبين العالم، وكيف نقوم بتغطية تلك الفجوات على مستوى العملية التعليمية، وكذلك على مستوى العملية البحثية فى كل تخصص، على مستوى العلوم الطبيعية والرياضيات، والحاسبات وعلوم المعلومات والذكاء الاصطناعي، والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الأرض والبيئة، والبيولوجيا، والهندسة والتكنولوجيا، والعلوم الطبية والصحية والصيدلية، والعلوم الزراعية وعلوم الحياة، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، إلخ.

وحتى لا تكون هذه المبادرة مجرد دعوة، فلابد من تحويلها إلى خطة عمل تنفيذية، والبدء فى هذه الخطة بتشكيل لجنة جامعية عليا، ولجان متفرعة على مستوى الكليات والأقسام العلمية. ثم تتنافس الأقسام العلمية والكليات من خلال مشروعات بحثية ممولة ماديا من الجامعة والكليات، وتصب فى النهاية فى مشروع بحثى رئيس لكل كلية، ثم تتبلور فى المشروع البحثى الرئيس للجامعة. ونعتزم فى جامعة القاهرة أن تدور كل المشروعات البحثية فى دورتها القادمة حول هذا المشروع الكبير لتطوير المحتوى التعليمى والبحثي.

وإذا ما نجحنا فى هذا، فإن النتائج سوف تكون غير عادية، ليس فقط بالنسبة لتطوير المناهج ووضع خريطة بحثية جديدة، ولكن أيضا لتطوير أنفسنا كأساتذة قد اطلعوا اطلاعا حقيقيا على آخر وضع للمناهج والمحتوى التعليمى والبحثى فى أكبر عشر جامعات ومراكز أبحاث ودوريات علمية. وبهذا نكون على علاقة وطيدة بمراكز الاهتمام فى تخصصات جامعات القمة العالمية ومقرراتها، والأولويات البحثية لمراكز التميز العلمى والدوريات المتخصصة، ونكون على وعى بالفجوات المعرفية والتكنولوجية الراهنة بيننا وبين العالم والإفادة من نتائجها فى بناء المقررات العلمية وتصميم الخطط البحثية.

ربط التعليم بالاستثمار

١٥ أغسطس ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا شك أن التقليد الأعمى أمر من مخلفات الجاهلية. أما مقارنة أنفسنا بالآخرين ومعرفة حدود أنفسنا وحدود قدراتنا، والاستفادة من تجارب الآخرين، فهى ليست تقليدا، ولا فقدانا للهوية، ولا انغماسا فى الآخر، بل تطوير للذات، وطلبا للحكمة أينما كان مصدرها؛ من أجل إثراء تجربتنا الذاتية وتطويرها فى منافسة عالمية شرسة نحو التقدم.

وفى كل الأحوال علينا أن ندرك الواقع على طبيعته الفعلية، ولا ننفصل عنه فى عالم من الوهم والتوهم بأننا الأفضل؛ فوجود فجوة معرفية بيننا وبين الدول المتقدمة فى الغرب أو الشرق الأقصى أو الشمال أو الجنوب، أمر مؤكد ولا يشكك فيه إلا المنفصلون عن الواقع الحى.

ومن أكثر ما يعجبنى فى خصائص جامعات الجيل الرابع، أنها تهتم بالعالمية فى إطار السياق المحلى، وتتعمق فى المحلية دون انعزال عن العالم وتجارب الأمم الأخرى. وهذا أيضا هو موقفنا من التراث، فلا تقليد أعمى، ولا رفض أعمى، ولا تقديس للتراث، ولا تقديس للآخر من الأمم الغالبة المتغلبة فى عصرنا. ويجب أن تكون كل مصادر المعرفة تحت الفحص النقدى العقلانى فى ضوء المنهجيات العلمية الحديثة.

إن عملنا وموقفنا لا يخرج عن كونه بحثا عن الحكمة، وعن التجارب الناجحة، وصب ذلك فى تجربة جديدة ثرية نصنعها نحن بأنفسنا فى ضوء ظروف العصر، تجربة جديدة نثرى بها أنفسنا ونثرى بها الإنسانية، ونطعم بها هويتنا، ونلحق فيها بركب التقدم، على أساس متطلباتنا المحلية، وعلى أساس من مواجهة التحديات التى تواجه الدولة الوطنية سواء فى عملية التنمية الشاملة أو فى مكافحة الفكر المتطرف الذى بات لا يهددنا نحن فقط بل يهدد الإنسانية، ويتعارض مع مفهوم عمارة الأرض بوصفه مفهوما نابعا من الوحى الكريم.

ومن هنا كانت دعوتنا فى مقال سابق لسد الفجوة المعرفية بين جامعتنا والجامعات العشر الأكثر أهمية وبروزا فى العالم فى ضوء التصنيفات العلمية فى العالم، وأن ننظر فى كل تخصص من حيث مراكز الاهتمام العلمى التعليمية والبحثية الرئيسية والفرعية، والمقررات الدراسية وتوصيفها وأساليب التعليم والتدريب وتقنيات التعليم المستخدمة. وكذلك رصد برامج واهتمامات عشرةمن المراكز البحثية ذات التميز العلمى على مستوى العالم، وعشرة من الدوريات المتخصصة المحكمة ذات معامل التأثير الأقوى فى العالم. وذلك بهدف رسم خريطة علمية للفكر العلمى والتكنولوجى العالمى بوضعه الراهن ومقارنتها بأوضاعنا فى جامعة القاهرة لتحديد الفجوات المعرفية والتكنولوجية بيننا وبين العالم، وكيف نقوم بتغطية تلك الفجوات على مستوى العملية التعليمية، وكذلك على مستوى العملية البحثية فى كل تخصص، على مستوى العلوم الطبيعية والرياضيات، والحاسبات وعلوم المعلومات والذكاء الاصطناعى، والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الارض والبيئة، والبيولوجيا، والهندسة والتكنولوجيا، والعلوم الطبية والصحية والصيدلية، والعلوم الزراعية وعلوم الحياة، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، إلخ».

ومن أشكال الفجوة المعرفية بيننا وبين العالم المتقدم، تلك الفجوة المعرفية بين التعليم والبحث العلمى من ناحية، والاستثمار من ناحية أخرى.

ولذلك أكدنا فى خطة جامعة القاهرة الاستراتيجية (٢٠٢٠ ـ ٢٠٢٥)، أن الضرورة باتت ملحة من أجل ربط التعليم بالاستثمار أكثر من أى وقت مضى، ويبدو أن كثيرين باتوا يدركون أن نجاح العملية التعليمية اليوم مرهون بامتلاك معرفة واسعة بأنماط الاستثمار والاقتصاد التى تزخر بها بلادنا ويزخر بها العالم، وضرورة تنمية عقلية منفتحة ومرنة مستعدة للعمل والاندماج فى بيئة متعددة فى أساليب الإنتاج وطرق العمل والتفكير.

ونظرًا لحدوث تغيرات محلية وإقليمية وعالمية متعددة؛ فإن الأمر يحتم علينا المُضى قُدمًا فى إجراء إصلاحات واسعة من أجل حسم خياراتنا التعليمية المستقبلية لصالح ربط التعليم بالاستثمار وبالتوظيف فى مختلف أنظمتنا التعليمية، وتدريب الطلاب على المواقف والمهارات اللازمة لتلبية احتياجات قطاعات الأعمال والصناعة والزراعة والتجارة والاقتصاد بشكل عام، مع الأخذ فى الاعتبار المهارات الحياتية Life skills ، وتعدد استراتيجيات وإجراءات الاندماج فى المنظومة الدولية للتعليم المرتبط بالمجالات المعولمة، كالذكاء الاصطناعى والروبوت والاقتصاد الرقمى والاتصالات وتطبيقات العلوم الأساسية والطبية والهندسية والإدارة والتسويق والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، التى تتطلب تكيفًا متواصلًا مع المتغيرات المحلية والدولية، وتحسينا مستمرًا للمقررات الأكاديمية والخريطة البحثية.

إن التعليم لن يكون أفضل وسيلة للاستثمار إلا بقدر نجاحنا فى ربطه بمفهوم التنمية الشاملة، وتغيير طرق التفكير، ومتطلبات تكوين المجتمع الديمقراطى حسب طبيعة ظروفنا والتحديات التى تواجهنا. وهنا ينبغى التأكيد على تجديد المحتوى التعليمى وأساليبه ليتناسب مع ضرورة الارتقاء والخروج من حدود التفكير الجامد المغلق إلى سعة التفكير الحر والمنفتح.

ومع عمليات إعادة البناء وتأسيس خطاب عقلانى جديد، نجد أن هناك العديد من الموضوعات بالغة الأهمية مثل تطوير سياسات التعليم فى جامعتنا، واستثماره فى التنمية الإنتاجية، ودعم علاقات الشراكة وبرامجها مع المؤسسات المحلية والدولية ومنظمات المجتمع المدنى، وتوسيع نطاق التعاون مع قطاع الصناعة، وتعميم توظيف تكنولوجيا المعلومات، وتحقيق التكامل بينها وبين الموارد البشرية، والتدريب المنظم والمستمر للهيئات الأكاديمية والمعلمين والقيادات، وتطوير مهاراتهم فى أساليب وطرق التعليم وبناء المناهج، وسد الفجوة بين التعليم الجامعى وقبل الجامعى.

وفى هذا السياق تم إعادة تصميم وتنفيذ السياسات التعليمية من خلال تطوير لوائح ونظم التدريس ونظم المعلومات فى الإدارة والتعليم والتسويق، والتحديث التقنى فى الجامعة. فى إطار منظومة واحدة تعمل على أساس من استراتيجية شاملة يتم فيها توزيع الأدوار، وتنسيق الجهود نحو مشروعات تعليمية متكاملة يتحقق فيها المفهوم الشامل للمعارف المنتجة، وتعزيز قدرة الطلاب على استغلال هذه المعارف لتحقيق الأهداف الحيوية للتنمية، وتوظيفها فى إطار خدمة مشاريع الاستثمار وحل مشاكل البطالة.

وعلى مستوى آخر، لابد من توليد آليات للتمويل الذاتى تقوم على إعطاء الأولوية فى الإنفاق الحكومى للتعليم من جهة، ومن جهة ثانية تسويق الإمكانيات البحثية لكليات ومراكز الجامعة، مع توجيهها نحو تقديم استشارات وبحوث واقتراح خطط نوعية لتطوير الشركات والمصانع لرفع أدائها الإدارى، وتطوير آلاتها، وتحسين المواد الخام، والارتقاء بجودة منتجاتها. ومن جهة ثالثة تشجيع وتحفيز قطاعات الأعمال والصناعة لضخ استثماراتها فى التعليم لأنها ببساطة سوف تستفيد منها.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٤»

٢٩ أغسطس ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

كيد النساء.. سبق أن كتبنا ثلاث عشرة مقالة تحت عنوان «ضد التصور الأسطورى للمرأة»، فى جريدة الأهرام العريقة، لكن مقتضيات الاهتمام بالشأن التعليمى وهموم البحث العلمى اقتضت قطع تلك السلسلة وكتابة مجموعة من المقالات عن التعليم والبحث العلمى، واليوم نعاود هذه السلسلة فى إطار مشروع تأسيس خطاب دينى جديد وتطوير العقل المصرى وإزاحة مساحات من الأساطير التى تحتل الخريطة الذهنية للخطاب الدينى التقليدى.

وانطلاقا من العقل النقدى، يجب أن نعيد النظر فى أحكامنا، ولا عيب فى أن يخضع فكرنا للتطور، بل يجب علينا أن نتطور بتطور الزمان ونتيجة لازدياد المعارف والخبرات والبحث العلمى. وقد تطور فقه الإمام الشافعى ثلاث مرات فى حياته، كما أن الإمام أحمد بن حنبل له ثلاثة آراء فى المسألة الواحدة فى كثير من القضايا، والفتوى نفسها تختلف باختلاف الأحوال وتغير الظروف وحسب المستفتى، والأحكام المستنبطة من القرآن تتغير بتغير السياقات والملابسات، مثل حكم المؤلفة قلوبهم، وحكم الزكاة، وحكم حد السرقة، كأمثلة شهيرة حدثت فى فقه عمر بن الخطاب رضى الله عنه. بل إن الوحى الكريم نفسه اختلف باختلاف السياقات الزمانية والمكانية وباختلاف نوع المتلقى عبر الزمن، (انظر كتابنا: تطور الأديان).

وإذا كان موضوع المرأة، مثل غيره من الموضوعات، قد تعرض لكثير من الأفكار الخاطئة والأساطير التى ورثناها من الخطاب الدينى التقليدى، فمن الواجب علينا مواصلة إزاحة سُحب الضباب من سماء الثقافة العربية، وإعادة تأسيس خطاب دينى جديد؛ حتى تظهر الأفكار المنضبطة والتصورات الواقعية التى تنسجم مع حدود البحث العلمى وضوابطه.

ومن الموضوعات والتصورات التى يكثر فيها اللغط، وتدخل فى باب الأساطير والأفكار غير المنضبطة عن المرأة من وجهة نظرنا، مسألة الحكم الشائع فى ثقافتنا وكثير من الثقافات عن «كيد النساء» بوصف الكيد ظاهرة نسائية شريرة، وأن النساء كيدهن عظيم! والغريب أن البعض يترك ثقافته تلون فهم نصوص القرآن الكريم، والبعض يفهم تلك النصوص فى ضوء الموروثات الاجتماعية الموروثة من عصور الجاهلية.

ومن تلك التصورات، ذلك التصور الشائع عن كيد النساء العظيم، وكأن «الكيد العظيم» حالة نسائية خاصة! حيث يشيع فهم مغلوط للوحى الكريم فى موقفه من مسألة كيد النساء، ويُصدر هذا الفهم المغلوط حكما عاما بأن «كل النساء كيدهن عظيم»، أو أن «كيد المرأة عظيم»، هكذا بإطلاق ودون تمييز، فهل القرآن الكريم أصدر هذا الحكم العام؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال، وفى ضوء ضابط تفسير القرآن بالقرآن: ما موقف القرآن الكريم من الكيد فى سوره وآياته الكريمة بشكل عام؟ والإجابة على هذا السؤال ضرورة علمية منهجية حتى يمكن أن نفهم الخاص فى ضوء العام، وحتى لا نقع فى الفهم الجزئى المبتور عن السياق العام، وهو خطأ منهجى صارخ، بل مغالطة منطقية يقع فيها الكثيرون ممن يجتزئون آيات القرآن الكريم ويقعون فى خطأ تعميمها دون حصر الحالات الجزئية، فالتعميم المعتمد على الجزء، ونزع الآيات من سياقها، خطأ منهجى تسبب فى كثير من الأحكام العامة المغلوطة التى لا تزال مسيطرة على ثقافتنا وطريقتنا فى التفكير.

لننظر فى آيات القرآن لنرى إذا كان الكيد حالة خاصة ملصقة بالمرأة أم لا؟ وعلى سبيل المثال، نجد فى سورة النساء حديثا عن كيد الشيطان، (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)، «النساء: ٧٦». وفى سورة الأنفال حديث عن كيد الكافرين، (ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ)، «الأنفال: ١٨». أما سورة يوسف، فبها حديث عن كيد أخوة يوسف الذكور له، (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)، «يوسف: ٥»، ثم حديث عن الكيد الذى تعرض له يوسف مرة أخرى من امرأة العزيز، (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)، «يوسف: ٢٨»، وأيضا فى سورة يوسف (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)، «يوسف: ٥٢»، كما أن سورة يوسف تبين أن الكيد قد يكون من أجل تحقيق الخير، (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) «يوسف: ٧٦». وفى سورة طه حديث عن كيد الساحر، (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)، «طه: ٦٩»، وفى سورة الأنبياء يمارس إبراهيم أبو الأنبياء الكيد فى صراعه ضد الوثنية، (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)، «الأنبياء: ٥٧»، وأيضا يمارس الوثنيون الكيد ضد إبراهيم عليه السلام، (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)، «الأنبياء: ٦٩، ٧٠»، وفى سورة الصافات ذكر للكيد الذى تعرض له إبراهيم عليه السلام، (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)، «الصافات: ٩٨»، وفى سورة غافر حديث عن كيد الكافرين، (فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)، «غافر: ٢٥»، وبها أيضا حديث عن كيد فرعون، (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) «غافر: ٣٧»، وفى سورة القلم منسوب إلى الله، (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)، «القلم:٤٥». وفى سورة الطور حديث آخر عن الكيد، (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)، «الطور: ٤٢». وأيضا فى سورة المرسلات، (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ)، «المرسلات: ٣٧ – ٣٩». وفى سورة الطارق حديث عن الكيد والكيد المضاد، (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا. وَأَكِيدُ كَيْدًا. فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)، «الطارق: ١٥– ١٧».

إذن من الواضح من استعراض هذه الآيات، أن الكيد نوع من التدبير الذى يشتمل على حيلة واستدراج من طريق غير معلوم، وأنه يتفاوت فى درجة إحكامه. ومن الواضح كذلك أن الكيد قد يكون فى الشر، وقد يكون فى الخير، وقد يكون سلبيا، وقد يكون إيجابيا، ولكن استخدامه أكثر فى السياقات السلبية. وقد يكون الكيد ضعيفا، وقد يكون قويا، وقد يكون عظيما. وقد ظهر أيضا أن الكيد منسوب فى النص القرآنى إلى أطراف عديدة؛ فهو مسألة عامة لا تطال المرأة فقط، بل تطال الرجال أيضا. وقد يُنسب إلى الأنبياء، وقد يُنسب إلى الله تعالى بمعنى خاص.

لكن ألم يأت فى القرآن الكريم القول: (..إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)؟!

الإجابة فى المقال القادم إن شاء الله.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٥»

٥ سبتمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

ظهر لنا من استعرض آيات القرآن عن الكيد فى المقال السابق، أن الكيد منسوب فى النص القرآنى إلى أطراف عديدة؛ فهو مسألة عامة لا تطال النساء فقط، بل تطال الرجال أيضا. وقد يُنسب إلى الأنبياء، وقد يُنسب إلى الله تعالى بمعنى خاص.

لكن ألم يأت فى القرآن الكريم القول: (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)؟!

إن البعض يدلل بهذا المقطع من الآية المذكورة فى القرآن على نسبة الكيد العظيم إلى النساء كلهن، كحكم مطلق، فهل فعلا هذا قول إلهى وحكم ربانى؟

يجب أن نميز فى القرآن الكريم بين الحكم الذى يحكم به الله تعالى، والحكم الذى يقصه القرآن عن الآخرين وأقوالهم. فليس كل ما فى القرآن حكما إلهيا، بل به أقوال الناس بمختلف أنواعهم، تلك الأقوال التى يقصها القرآن عنهم، نسبة إلى أشخاص أو مجموعات على سبيل الرواية، وليس على سبيل التقرير، ومنها الصحيح فى الحكم على الظواهر أو على الناس، ومنها غير الصحيح.

بالرجوع إلى الآيات الكريمات التى يستند إليها هذا الفهم المغلوط، نجدها كالتالي: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ. وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ) (يوسف: ٢٣ ـ ٣٢).

لاحظ معى هنا عدة ملاحظات تجدها بشكل مباشر فى النص القرآنى الكريم:

إن هذا القول (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) هو قول أحد الشاهدين من أهلها أو قول زوجها نفسه، وليس حكما أصدره القرآن الكريم، (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)، قال الفخر الرازي: «وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ»، (انظر تفسير مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ١٨/ ٤٤٦).

وفى تفسير الطبرى «جامع البيان» (١٦/ ٥٦-٥٨)، عن ابن عباس: (وشهد شاهد من أهلها)، قال: كان من خاصّة الملك، وقال عكرمة: كان رجلا حكيمًا. وعن مجاهد: (وشهد شاهد من أهلها) قال: كان رجلا. وبه نفسه قال مجاهد وسعيد بن جبير، وعن السدي، قال: ابن عمها كان الشاهدَ من أهلها. وعن ابن أبى مليكة: (وشهد شاهد من أهلها) قال: كان من خاصة الملك. وعن قتادة، قوله: (وشهد شاهد من أهلها) قال: رجل حكيم كان من أهلها. وعن الحسن، فى قوله: (وشهد شاهد من أهلها) قال: رجل له رأى أشارَ برأيه. والبعض يزعم أن الشاهد كان صبيًّا فى المهد، دون دليل يقينى الثبوت تاريخيا على ذلك! بل إن بعضهم يتوهم ويزعم دون دليل أنه لم يكن إنسيا! وهو رأى مجاهد: (وشهد شاهد من أهلها)، قال: كان من أمر الله، ولم يكن إنسيًا. وهذا تفسير بالغ الخطأ لأسباب عديدة، فكيف يمكن الزعم بذلك؟ ولماذا الخروج عن حدود النص القرآن الصريح؟ للأسف إن تسرب الإسرائيليات فى كثير من كتب التفسير أضر ضررا بالغا بعملية فهم القرآن الكريم فهما علميا منضبطا.

والغريب أن بعض القدماء من المفسرين نسبوا هذا القول لله ذاته على الرغم من أن السياق صريح وجازم فى نسبته إلى الشاهد من أهلها أو إلى زوجها نفسه عندما ظهرت له الحقيقة. يقول الزمخشري:«وعن بعض العلماء: أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان، لأنّ الله تعالى يقول: (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً)، وقال للنساء: (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) ...». تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ٢/ ٤٦١).

انظر عزيزى القارئ، كيف يقوم البعض من المفسرين بنزع القول من سياقه وينسبون إلى الله تعالى قولا لم يقل به، وحكما لم يحكم به على النساء!

وبصرف النظر عن هذه الأقوال، وبصرف النظر عما يوجد فى بعضها من أساطير، فإن السياق والآيات صريحة الدلالة على أن هذا ليس قولا إلهيا بل قول أحد الشهود من أهلها أو إلى زوجها نفسه، ولا يوجد احتمال ثالث. ومن هنا فهو قول ليس له قداسة إلهية مطلقة؛ لأنه قول نسبه القرآن إلى بشر ذى عقل نسبى قد يصيب وقد يخطئ.

إذن فالقرآن الكريم لم يصدر هذا الحكم العام (إن كيدكن عظيم)، بل نسبه إلى شاهد من أهلها أو زوجها، (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).

وعلاوة على هذا، فإن الوصف بالكيد العظيم فى هذا القول، هو وصف لبعض النسوة وليس لكل النساء، إنه وصف لهذه المرأة التى كادت ليوسف ومن معها أو مثلها من المخاطبات (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ).

وهنا تنمحى أسطورة أخرى من الأساطير العالقة بالصورة الذهنية للمرأة فى المجتمعات المتخلفة المريضة.

والحديث لم يكتمل عن حقيقة كيد النساء...

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٦»

١٢ سبتمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

فى إطار إعادة بناء مفهوم «الكيد»، وتخليص فهمنا للقرآن الكريم من الموروثات الاجتماعية، وتحرير عقولنا من التصورات الأسطورية للمرأة والرجل، وبعد أن تم إثبات أن وصف النساء «كنوع»بالكيد العظيم ليس وصفا إلهيا، بل هو وصف بشرى من ذلك الشاهد من أهلها، لا تزال أمامنا عدة وقفات لاكتمال تحرير المفهوم، على النحو التالي:

مما يؤكد أن النساء والرجال مشتركان فى القدرة على الكيد بكل أنواعه، ارجع معى إلى أول سورة يوسف، (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ. إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (يوسف: ٣ -٥).

انظر إلى قول يعقوب عليه السلام: (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ)، نسب فيه يعقوب الكيد إلى إخوته وهم ذكور. كما توقع يعقوب خطتهم فى الكيد ليوسف وخداع أبيهم؛ لكنهم على الرغم من ذلك استطاعوا خداع أبيهم بكيد عظيم ليوسف. مما يدل على أن الخطط الكيدية العظيمة ليست قاصرة على النساء. ومن اللافت أن إخوة يوسف اتهموا أباهم النبى بأنه فى ضلال مبين على الرغم من أنهم يعلمون أنه نبى مرسل! وبالفعل قاموا بخداعه، وأخذوا يوسف، وكادوا له كيدا عظيما دنيئا على النحو التالي: (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ. قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)، (يوسف: ٨ ١٤). وكيد إخوة يوسف لأخيهم قصة تتكرر فى كل العصور بين بعض الأخوة فى أشكال وسيناريوهات متنوعة، مثلما تتكرر قصة قابيل وهابيل فى كل العصور بأشكال وسيناريوهات متنوعة، تارة بالمواجهة المباشرة، وتارة بالكيد العظيم.

بعض المفسرين يبحثون عن تبرير لحل التناقض العقلى والأخلاقى الذى وقع فيه إخوة يوسف فيما يتعلق بإيمانهم بالنبوة، يقول الفخر الرازي: السُّؤَالُ الثَّانِي: أَنَّ أَوْلَادَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ كَانُوا قَدْ آمَنُوا بِكَوْنِهِ رَسُولًا حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَيْفَ اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ، وَكَيْفَ زَيَّفُوا طَرِيقَتَهُ وَطَعَنُوا فِي فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانُوا مُكَذِّبِينَ لِنُبُوَّتِهِ فَهَذَا يُوجِبُ كُفْرَهُمْ. وَالْجَوَابُ: أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِنُبُوَّةِ أَبِيهِمْ مُقِرِّينَ بِكَوْنِهِ رَسُولًا حَقًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّهُمْ لَعَلَّهُمْ جَوَّزُوا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَفْعَلُوا أَفْعَالًا مَخْصُوصَةً بِمُجَرَّدِ الِاجْتِهَادِ، ثُمَّ إِنَّ اجْتِهَادَهُمْ أَدَّى إِلَى تَخْطِئَةِ أَبِيهِمْ فِي ذَلِكَ الِاجْتِهَادِ...»، (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: ١٨/ ٤٢٣).

ويواصل الفخر الرازى عملية التبرير للإشكاليات الأخرى الإيمانية التى طرحت نفسها بسبب موقف إخوة يوسف معه ومع أبيهم، فيقول: «السُّؤَالُ الثَّالِثُ: أَنَّهُمْ نَسَبُوا أَبَاهُمْ إِلَى الضَّلَالِ الْمُبِينِ، وَذَلِكَ مُبَالَغَةٌ فِي الذَّمِّ وَالطَّعْنِ، وَمَنْ بَالَغَ فِي الطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ كَفَرَ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الطَّاعِنُ وَلَدًا فَإِنَّ حَقَّ الْأُبُوَّةِ يُوجِبُ مَزِيدَ التَّعْظِيمِ. وَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ مِنْهُ الضَّلَالُ عَنْ رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ فِي الدُّنْيَا لَا الْبُعْدُ عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ وَالصَّوَابِ. السُّؤَالُ الرَّابِعُ: أَنَّ قَوْلَهُمْ: لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا مَحْضُ الْحَسَدِ، وَالْحَسَدُ مِنْ أُمَّهَاتِ الْكَبَائِرِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَقْدَمُوا عَلَى الْكَذِبِ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْحَسَدِ، وَعَلَى تَضْيِيعِ ذَلِكَ الْأَخِ الصَّالِحِ وَإِلْقَائِهِ فِي ذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ وَتَبْعِيدِهِ عَنِ الْأَبِ الْمُشْفِقِ، وَأَلْقَوْا أَبَاهُمْ فِي الْحُزْنِ الدَّائِمِ وَالْأَسَفِ الْعَظِيمِ، وَأَقْدَمُوا عَلَى الْكَذِبِ فَمَا بَقِيَتْ خَصْلَةٌ مَذْمُومَةٌ وَلَا طَرِيقَةٌ فِي الشَّرِّ وَالْفَسَادِ إِلَّا وَقَدْ أَتَوْا بِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ يَقْدَحُ فِي الْعِصْمَةِ وَالنُّبُوَّةِ. وَالْجَوَابُ: الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ، إِلَّا أَنَّ الْمُعْتَبَرَ عِنْدَنَا عِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي وَقْتِ حُصُولِ النُّبُوَّةِ، وَأَمَّا قَبْلَهَا فَذَلِكَ غير واجب والله أعلم» (مفاتيح الغيب: ١٨/ ٤٢٤).

لقد وقع هؤلاء الإخوة الذكور فى خصال بالغة السوء، ومنها الكيد الشرير، والحسد الهدام البغيض، والخيانة، والكذب، والإضرار بأبيهم وأخيهم ضررا بالغا، واتهام أبيهم بالضلال على الرغم من كونه نبيا. ويعد موقفهم جامعا لمفاسد الإخوة الأشرار فى كل العصور.

والشاهد من كل ذلك أن الكيد الشرير ليس مخصوصا بالنساء، بل يقع فيه أيضا الذكور، ويقع فيه فئات بشرية كان من المفترض فيها التنزه عن ذلك!

٣- لم يكن المجتمع المصرى كله شرا مطلقا كما يصور البعض، ولم يكن كل حكامه أشرارا، بل كان منهم المؤمنون والصادقون وأهل العدل وشهادة الحق، وبه الكافرون والكاذبون والظالمون وشهاد الزور، مثلما هو فى كل المجتمعات الإنسانية فى كل العصور. بل كان فى المجتمع المصرى من يشهد بالحق حتى ولو على أهله. وفى هذا الموقف من القصة تحديدا، قد شهد فى الموضوع وحكم بالعدل شاهد من أهلها دون أن ينحاز إليها، (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).

٤- تورطت بعض نساء المدينة وليس كلهن، (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ). ولذا من الخطأ تعميم التورط على نساء المدينة كلهن أو على نساء مصر كلهن.

٥- لم يمنع تورط بعض النساء فى الأمر، من قولهن الحق وشهادتهن لصالحه، (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)، (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (يوسف: ٥١، ٥٢). لاحظ أيضا أن امرأة العزيز تشهد له فى اللحظة الحاسمة.

أرجو بعد هذا الإيضاح، أن نتجنب الوقوع فى خطأ التعميم الذى لا يزال خطأ يسيطر على قطاعات كبيرة من البشر فى عصرنا، حيث يحكمون بسرعة ومغالطة على الكل بالاستناد إلى الجزء! كما أرجو أن نتبين الأهمية القصوى لتفسير القرآن بالقرآن كضابط له الأولوية فى فهم مقاصد الوحى، من أجل تأسيس خطاب دينى جديد.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٧»

١٩ سبتمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

تكمن نقطة البداية فى إصلاح تصوراتنا عن المرأة، وغيرها من التصورات الأخرى الموروثة من الخطاب الدينى التقليدى عن الإنسان والإلوهية والوجود، فى إعادة تشكيل العقل بالمنهجية العلمية فى فهمه للقرآن الكريم، والتخلى عن الموروثات الاجتماعية، ونبذ المرويات الإسرائيلية التى وقع فى فخها كثير من المفسرين للقرآن الكريم، حتى حجبت التصور القرآن النقى، وأسقطت عليه معانى لا يحتملها. ومن أسف فقد مرت إلى ثقافتنا وعلقت بأهداب عقولنا، وصارت حجابا بيننا وبين الوحى الكريم.

لقد حان الوقت للتخلص من التصورات الأسطورية للكون والإنسان والإلوهية، وتخليص رؤيتنا للعالم من أى تصور يخرج عن حدود العلوم الطبيعية، وتحرير رؤيتنا للذكورة والأنوثة من التمييز ومفاهيم الاستعلاء.

ومن وجهة نظرنا، أنه لا يمكن إعادة بناء تصوراتنا عن المرأة دون إعادة بناء تصوراتنا عن الإنسان، عبر العقل النقدى. وفى هذا السياق لابد من إعادة التأكيد مجددا على أن إعادة بناء إنسان مصرى جديد لا يمكن أن يتم دون تطوير العقل، فالعقل هو الذى يقود الإنسان، وإذا كان العقل منضبطا فسوف تنضبط الشخصية كلها. إن العقل وطريقة فهمه للظواهر وطريقة حكمه عليها هى الأساس، ولابد من ضرورة العودة إلى فلسفة العلوم ومناهج البحث العلمى وقواعد التفكير النقدى، فى عملية بناء الإنسان المصرى حتى يكون صاحب تفكير عقلانى فى كل القضايا.

ومن أسف، فإن قطاعات من العقل المصرى والعربى لا تزال تسيطر عليها المفاهيم البدائية للفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة، وقد تصورت بعض تلك العقول أن تلك الفروق الطبيعية بين الذكورة والأنوثة تستلزم عدم المساواة الإنسانية! وهى تصورات بدائية لأنها لم تدرك أنه يمكن أن يختلف شيئان فى بعض جوانب الطبيعة أو الوظيفة لكنهما يتكافآن فى القيمة.

مثل اختلاف التفاح عن مقدار معين من العملة، فعلى الرغم من كون التفاح والعملة مختلفين فى الطبيعة لكنها يكافئان بعضهما فى القيمة، فمقدار معين منه يكافئ مقدارا معينا من الآخر. لكن لا يمكن القول إنهما متساويان فى الطبيعة والوظيفة. فمعنى التكافؤ فى المنطق الصورى غير معنى التساوى.

وهذا مجرد مثال توضيحى، وليس له دلالة أكثر من شرح مفهوم التكافؤ والفرق بينه وبين مفهوم المساواة، لا أكثر ولا أقل؛ لأن الرجل والمرأة خرجا من المنبع نفسه وهو منبع الإنسانية، ويشتركان فى تلك الإنسانية بالدرجة نفسها. والفروق بينهما هى فروق من أجل التكامل؛ حيث يجد كل منهما عند الآخر ما لم يجده عند نوعه نفسه.

ومن هنا فإن تلك الفروق لا تعنى أى لون من ألوان المفاضلة أو المفاخرة بين الجنسين، فكون الرجل مختلف عن المرأة فى بعض الجوانب، والمرأة مختلفة عن الرجل فى بعض الجوانب لا يعنى أن أحدهما أفضل من الآخر، إنما كلاهما متكافئان فى القيمة، ولو أن قيمة كل منهما من نوعٍ مختلف.

وإذا كان يوجد منطقة مشتركة بينهما، وهى الإنسانية الكاملة، وإذا كان كل من الجنسين قد يأخذ من الآخر بعض السمات بنسب متفاوتة، فإن هذا لا ينفى مطلقًا أنهما متميزان عن بعضهما البعض بسمات خاصة، ولا علاقة لهذا على الإطلاق بالاشتراك الكامل، سواء فى القيمة الإنسانية والوجودية أو فى القدرة التنافسية العامة.

وليست الذكورة والأنوثة شيئًا مقصورًا على الإنسان وحده، بل هى شيء شائع فى الحيوان والنبات والجماد. وإذا أردنا الدقة فهى شيء شائع فى جميع الكائنات، حتى ما يخفى منها عن العيان المباشر، مثل: الكهارب الموجبة والسالبة، التى تتجاذب لتستوى بها الذرة الدقيقة. وهذا يعنى، فيما يعنى، أن الحياة لا تستقيم إلا بوجودهما معا.

وإذا نحينا جانبا الموروثات الاجتماعية والمرويات الضعيفة والموضوعة فى كتب التفاسير، ونظرنا مباشرة فى القرآن الكريم، سوف نجد أنه قد سجل صراحة تلك الحقائق فى مواضع كثيرة، منها:

- «وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» .. (الذاريات: ٤٩).
- «وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى» ،(النجم: ٤٥).
- «خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ» .. (يس: ٣٦).

وجريًا على سنة الله تعالى فى الطبيعة، كان لابد أن يختلف كل من الرجل والمرأة فى جانب من طبيعة التكوين والفطرة، حتى إذا ما التقى الاثنان وجد كل منهما عند الآخر ما ليس موجودًا عنده ولا عند أمثاله. ولذا نرى كلاً منهما يسعى سعيا حثيثًا إلى الاتحاد بصنوه المتمم له، ويلتمس السعادة والكمال فى التوافق معه.

إن العلوم المختلفة قديمًا وحديثًا سجلت الاختلافات النسبية بين الذكر والأنثى فى بعض الجوانب، خاصة: علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم النفس.

ومن وجهة نظرى أن تلك الفروق بين الجنسين، تؤسس منطقيا لتوضيح نظرة الإسلام إلى كل من الذكر والأنثى، وكيف أنه سوّى بينهما فى الأمور التى تتصل بالإنسان من حيث هو إنسان، وفرّق بينهما فى بعض النواحى تفرقةً تنشأ من تباين جانب من طبائعهما، واختلاف جانب من وظائفهما؛ مثل الاختلاف بين الأمومة والأبوية؛ تحقيقًا لصالحهما، ولصالح كل من الأسرة والمجتمع والحضارة، ولا علاقة لذلك بقيمة كل منهما، ولا علاقة أيضا ولا دلالة على أن أحدهما أفضل من الآخر.

وعلى العكس من هذا التصور الذى يوحد بينهما فى القيمة، نجد أصحاب الفكر الأسطورى يصورون تلك الفروق على أنها تعنى أفضلية الرجل من حيث هو رجل على المرأة من حيث هى امرأة! وقد تولد عن ذلك صورة رجعية عن المرأة. وتجد تلك الصورة الرجعية عن المرأة مغذيات لها من فهم مغلوط للوحى الكريم.

وتأسيسا على كل ذلك، يجب أن تتوارى الصورة الذهنية التقليدية الأسطورية التى تصدر أحكاما عامة غير منصفة على المرأة، لصالح الصورة الذهنية القائمة على الواقع والفروق الفردية والشخصية بعيدا عن التمييز القائم على اختلاف النوع. ذلك أن الاختلاف بين الرجل والمرأة فى هذا المضمار لا يجب أن يُرد إلى اختلاف النوع (ذكرا كان أو أنثى)، بل يجب أن يُرد إلى تكوين الشخصية وسماتها وقدراتها فى الواقع الحى وليس إلى الصورة الذهنية الأسطورية المختلقة.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٨»

٢٦ سبتمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا تقف عملية نقد التصورات الأسطورية حول المرأة، عند حدود الطرح النظرى فى جامعة القاهرة، بل هى قصة طويلة من العمل والتطور والكفاح على الأرض تقوم بها فرق عمل فى جامعة القاهرة بالتعاون مع منظمات دولية وقومية مرموقة مثل الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى والمجلس الثقافى البريطانى والمجلس القومى للمرأة.

ولا يقف هذا العمل عند حدود مشروع مناهضة العنف ضد المرأة، بل يتجاوز ذلك على الأرض من أجل تغيير تصوراتنا وأفكارنا عن أنفسنا وعن العالم وعن الله وعن المرأة، وعن كل شيء. إنها قصة تطور وقصة كفاح تعكس تطور جامعة القاهرة، وتعكس تطور الفكر المصرى، وتعكس تطورنا نحن كمواطنين فى مرحلة مهمة من التاريخ المصرى ومن تطور الفكر العربى والفكر العالمى.

وقد ظهرت بعض نتائج هذه الجهود فى المؤتمر الختامى لمشروع حرم جامعى آمن للجميع بالتعاون مع الاتحاد الأوروبى والمجلس الثقافى البريطانى وبمشاركة المجلس القومى للمرأة.

وهذا المشروع المهم مرتبط من وجهة نظرنا بمجموعة من المشروعات الفكرية الأخرى، سواء على مستوى الدولة الوطنية مثل «مشروع إعادة بناء الإنسان» الذى أطلقه السيد رئيس الجمهورية من جامعة القاهرة، أو على مستوى المشروعات النوعية التى تم إطلاقها من جامعة القاهرة. ومنها مجلس الثقافة والتنوير الذى أعلنا عنه فى أغسطس ٢٠١٧ منذ أربع سنوات تقريبا، والذى تشكل من نخبة من المفكرين وقادة الرأى. وقد عكف مجلس الثقافة والتنوير على إعداد «وثيقة التنوير» التى تحدد هويتنا، وتحدد المبادئ العامة لأفكارنا وتصوراتنا عن جامعة القاهرة ودورها وعن التعليم وعن مصر وعن أنفسنا وعن العالم.

وأكدت وثيقة التنوير ٢٠١٧، فيما أكدت، على مجموعة من المبادئ التى تحكم هوية الجامعة وتحدد مسارات عملها، ومنها المبدأ الثالث عشر الذى ينص على «عدم التمييز على أساس دينى أو عرقى أو اجتماعى أو سياسى أو على أساس النوع أو غيره من أسس التمييز التى تتعارض مع فكرة المواطنة، فالجميع محكوم بمبدأ المواطنة، والجميع سواء أمام القانون، والكل متساوون بوصفهم مواطنين، والديمقراطية هى أكبر ضامن للسلام الاجتماعى وهى الأسلوب الأمثل فى إدارة الخلاف بين الجميع فى إطار الدولة الوطنية. ولا يمكن أن تحقق الديمقراطية أغراضها دون نبذ العنف والإرهاب والتطرف وتفكيك الأصوليات المغلقة».

إن فكرة التمييز فكرة تتعارض تماما مع أفكار جامعة القاهرة، ومع أفكار الآباء المؤسسين لجامعة القاهرة، وعن التطور الذى شهدته هذه الجامعة كجامعة تعكس تاريخ مصر الحديث.

ويرتبط أيضا موقفنا من المرأة بمشروع تطوير العقل المصرى الذى أطلقناه من جامعة القاهرة أيضاً منذ أربع سنوات؛ لأن الأعمال والأفعال لا يمكن أن تتغير دون أن تتغير طرق التفكير أولا حتى تتغير نظرتنا إلى العالم وتتغير طريقتنا فى التصرف والسلوك. وهذا أحد أسس «أخلاق التقدم» التى كشف عنها كتاب لكاتب هذه السطور بالعنوان نفسه.

من هنا فإن مشروع مناهضة العنف ضد المرأة مرتبط بمشروع تطوير العقل المصرى، ومرتبط أيضا بتأسيس خطاب دينى جديد.

فإذا أردت أن تغير أفكار الناس عن العالم وعن أنفسهم، ينبغى عليك أن تضع على قائمة أولوياتك، تغيير طريقتهم فى التفكير الدينى؛ لأن الدين يحدد كثير جدا من أفكارنا ومن تصوراتنا. ولا يكمن التغيير فى ثوابت الدين ولكن التغيير يكمن فى طريقة فهمنا للدين.

ويرتبط تصورنا للمرأة، كمواطن كامل الأهلية، ارتباطا وثيقا بتصورنا لمفهوم الدولة الوطنية، فالدولة الوطنية هى أعلى أشكال تطور الدولة التى تقوم على مفاهيم الشعب والإقليم والحكومة، وتتمحور على أسس النسيج الوطنى والمواطنة بصرف النظر عن اختلاف النوع أو العرق أو الدين، وهى تلك الأسس التى تقوم عليها الدولة الحديثة بشكل عام.

ومن هنا فإن طريقتنا فى التفكير فى الدولة أننا نتصور الدولة الوطنية كأساس للنظم السياسية والاجتماعية التى تقود مصر انطلاقا من فكرة المواطنة وليس على أى منطلق آخر.

ويمكن أن يجد القارئ الكريم مزيدا من التفصيلات فى كتابنا «فلسفة المواطنة وأسس بناء الدولة الحديثة».

ومن هذه الزاوية فنحن ننظر بكل الجدية إلى «الإستراتيجية الوطنية لحقوق الإنسان» التى أطلقها السيد رئيس الجمهورية؛ حيث إن دائرة مناهضة العنف ضد المرأة هى دائرة مرتبطة بدائرة أوسع، وهى دائرة حقوق الإنسان فى مفهومها الشامل. وحقوق الإنسان مسألة نشترك فيها مع العالم المتحضر كله، ومع مبادئ الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى والمجلس الثقافى البريطانى والمجلس القومى للمرأة.

لن ننسى «صحيفة المدينة المنورة» التى أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام، كأول وثيقة مدنية بعد وصوله إلى يثرب المدينة المنورة. ولن ننسى الماجنا كارتا أو الميثاق الأعظم تلك الوثيقة الإنجليزية التى أعلنت عام ١٢١٥م. ولن ننسى الثورة الفرنسية ومكتسباتها، ولا الثورة الأمريكية فى الجانب الحقوقى منها، ولن ننسى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة ١٠ ديسمبر ١٩٤٨م.

وإذا نظرنا فى دائرة أخرى ذات صلة وثيقة بقضية المرأة، نجد دائرة المجتمع المدنى، ومن هنا تضع جامعة القاهرة على أجندة أولوياتها المبادرة الرئاسية لاعتبار العام القادم هو عام المجتمع المدنى، لاسيما أننا ندرك أهمية المجتمع المدنى كشريك فى إنصاف المرأة وكشريك فى عملية التنمية، وهو الأمر الذى تجلى فى كتب ثلاثة لنا صدرت فى العقدين الآخرين، وهي: «المجتمع المدني»، و«المجتمع المدنى والدولة»، و«المجتمع المدنى عند هيجل».

إذا هى جميعا دوائر مشتركة تتقاطع وترتبط ببعضها البعض، من أجل إنفاذ رؤية مصر الدولة الوطنية فى موقفها الحضارى من المرأة كشريك كامل الأهلية فى الإنسانية وفى الوطن، ومن أجل أن تنتقل بلادنا نقلة نوعية كدولة حديثة تأسس على إنسان مصرى جديد، فى إطار خصوصيتها التاريخية والثقافية، وفى إطار دورها الإقليمى والعالمى كشريك دولى فعال لتحقيق الإنصاف للجميع سواء كان رجلا أو امرأة.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «١٩»

٣ أكتوبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا تتوقف قصة التطور عند محطة واحدة، بل لا يزال أمامنا محطات ومحطات على سلم التطور، وسوف يستمر التطور ما استمرت الإنسانية على وجه الأرض، بل وسوف يستمر التطور باستمرار عالم الأحياء واستمرار العوالم الكونية. ومن الخطأ الزعم بوجود نهاية للتاريخ، فالتاريخ فى مجمله يسير نحو الأمام؛ إنها قصة ارتقاء الإنسان وقصة تطور الكون.

إن التطور سنة تاريخية، والتطور قانون عام يحكم عالم الأحياء وعالم الأفكار وعالم العلوم والفنون، و(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ)، (سورة الرحمن: ٢٩). أما «الجامدون الأحياء الأموات»، فإن عقلوهم وقلوبهم: (كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) (سورة البقرة: ٧٤).

ويشمل هذا التطور تطور الأفكار والتصورات عن الإنسان والعالم والألوهية وغير ذلك من الأفكار والتصورات النوعية. وكلها مرتبطة ببعضها البعض فى دوائر متقاطعة، وينعكس التغير فى أى منها على الأخرى، مثل الأوانى المستطرقة.

وعلى هذا الأساس العام، يمكن القول فى إطار الحديث عن المرأة ومناهضة التصورات الخاطئة عنها، وعلى وجه التحديد عن مشروع «مناهضة العنف ضد المرأة»، فى جامعة القاهرة، أقول يمكن القول إنه مشروع خضع للتطور، ولا يعنى هذا إنكار جهود السابقين ولا اللاحقين. كما انه ليس مشروعا يعمل فى جزيرة منعزلة، بل هو دائرة متقاطعة مع دوائر مشروعات فكرية أخرى، سواء على مستوى مشروعات الدولة الوطنية أو على مستوى المشروعات النوعية فى جامعة القاهرة.

وتلك الدوائر لها دور فى تطور نظرتنا إلى ما كان يسمى سابقا بـ «وحدة مكافحة التحرش»، فالحقيقة وحدة مكافحة التحرش وحدة بالغة الأهمية تم إنشاؤها فى جامعة القاهرة سنة ٢٠١٤، وحققت نجاحا بارزا. لكن التطور والتطوير هما طبيعة الحياة وسنة التاريخ؛ ولذا وسعنا مفهوم مكافحة التحرش إلى مفهوم أكثر شمولا وهو مناهضة العنف ضد المرأة؛ لأن التحرش أحد أنواع العنف، والأمر يستوجب معالجة كل أشكال العنف ولا يقتصر على شكل واحد، من أجل التوصل إلى «حرم جامعى آمن». وقد استجاب لنا المجلس الثقافى البريطانى، كما استجاب الاتحاد الأوروبى، وتم تغيير اسم الوحدة. كما أعدنا هيكلة الوحدة هيكلة كاملة من أجل أن نعطيها دفعة إلى الأمام وفق مفهوم أوسع. وكانت تلك الوحدة مسارا من بين مسارات عديدة لإعادة بناء التصورات حول المرأة ذاتها وحول العلاقة بين وجهى الإنسانية (المرأة والرجل). وتقص قصة تطور هذه الوحدة جانبا من قصة تطور جامعة القاهرة، وجانبا من قصة تطور النظرة المصرية، ومقطعا من قصة تطورنا كأفراد.

لن أعيد هنا تكرار إنجازات الوحدة، لكنى أريد أن أؤكد على بعض الأفكار، ودورها فى تغيير طريقة العمل، ومنها أننا فى شهر ديسمبر عام ٢٠١٧م، كانت هناك حملة ١٦ يوما ضد التحرش، وتحت قبة جامعة القاهرة، طرحنا وقتها للنقاش أن مفهوم تمكين المرأة ينطوى على تمييز مضاد، ونحن نريد أن نلغى التمييز بكل أنواعه؛ وتساءلت: هل ينطوى مفهوم تمكين المرأة على نوع من التمييز المضاد لتمكين الرجل، وكأننا ننتقل من النقيض إلى النقيض كما يقول الفيلسوف الألمانى هيجل.

وكانت الفكرة هى رفض فكرة الانتقال من النقيض إلى النقيض، والعودة إلى منطقة الوسط بين النقيضين، أعنى تجاوز مفهوم تمكين الرجل كتمييز ضد المرأة، وتجاوز نقيضه وهو مفهوم تمكين المرأة كتمييز مضاد، وفى المقابل نتحدث عن مفهوم «تمكين الكفاءة» بصرف النظر عن النوع وبصرف النظر عن الجنس. ومن هنا طرحنا مفهوم تمكين الكفاءة. وأعتقد أن هذا المفهوم ساعدنا كثيرا جدا على مستوى التنفيذ بجامعة القاهرة؛ لأن المسألة لا تقف عند مجرد وحدة مكافحة العنف ضد المرأة، ولكن أيضاً كان هناك عمل على الأرض يقوم على أساس إلغاء التفكير القائم على التمييز بشكل عام إلا على أساس العمل والكفاءة. وكانت هذه خطوة على طريق الارتقاء فى إنصاف المرأة التى عملت عليها جامعة القاهرة منذ نشأتها. واستمرت على هذا الدرب عبر تاريخها، وقد وصلت نقطة الذروة الآن إلى أن أصبحت نسبة المناصب القيادية الجامعية للمرأة ٤٧٪. وبلغت نسبة العمداء الآن من النساء ٣٤,٦٪، ونسبة وكلاء شئون التعليم والطلاب ٦٥٪، وهذا هو القطاع الذى كنت أشرف بأننى كنت نائبا لرئيس الجامعة لشئون التعليم والطلاب، وبلغت نسبة وكيلات خدمة المجتمع ٤٨٪، والدراسات العليا ٤٤٪.

فهل هذا جاء على أساس فكرة تمكين المرأة؟ أم على أساس تمكين الكفاءة؟ وأيهما يسعد المرأة أكثر؟ وأيهما أفضل أن نمكنها لأنها امرأة أم نمكنها لأنها كفاءة؟ أظن أن ما يسعد المرأة أكثر أن نفكر فيها ككفاءة وكإنسان.

إن فكرة التمييز والتمييز المضاد خرجت إلى غير رجعة، وحلت محلها فكرة التمييز على أساس الكفاءة. إن المرأة إنسان، والإنسان له وجهان: رجل وامرأة.

إننى أدعو نفسى وأدعوكم إلى الأرضية المشتركة التى تربط بيننا جميعا، أعنى أرضية الإنسانية التى لا تمييز فيها إلا على أساس العمل الصالح والكفاءة، تلك الأرضية التى نتعلم فيها من محمد (ص) والمسيح والفارابى وابن رشد ومالك وابن الرومى، كما نتعلم من كنط وبرتراند راسل وفتجنشتاين وتولستوى وكونفشيوس ونجيب محفوظ وبيتهوفن وحتشبسوت وميركل. إنهم فى المسافات المشتركة بين الشعوب. لكن فى الوقت الذى نحافظ فيه على الدخول فى المربع المشترك مع العالم والإنسانية، نحرص أيضا على خصوصيتنا فى طريقة العمل؛ ذلك أن خصوصية الدول مثل خصوصية الأفراد، ومصر لها موقفها ولها تصورها ولها وضعها التاريخى الذى يختلف عن أية دولة أخرى، ومن ثم ندعو للمشترك بيننا، وفى الوقت نفسه ندعم خصوصية كل منا، هناك خصوصية لبريطانيا، وهناك خصوصية للنمسا، وهناك خصوصية لفرنسا، وهناك خصوصية للصين، وهناك خصوصية للولايات المتحدة الأمريكية، وأيضا وبالمثل هناك خصوصية لمصر. لكن هل تتعارض هذه الخصوصية مع فكرة الاشتراك والوحدة؟ لا، فهى التنوع فى الوحدة والوحدة فى التنوع.

وقل مثل ذلك فى الجامعات، حسب مفهوم جامعات الجيل الرابع، التى تقوم فيما تقوم، على الاندماج فى العالمية والأرضية الإنسانية المشتركة مع الحفاظ على الخصوصية النوعية، سواء كانت خصوصية الجامعة أو خصوصية الوطن.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٠»

١٠ أكتوبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا ينفصل نقد التصورات الأسطورية للمرأة، عن اتجاهنا نحو إقرار «مبدأ الإنصاف» كأساس وكغاية فى الوقت نفسه. كما لا ينفصل نقد التصورات الأسطورية للمرأة عن «النزعة الإنسانية» الخالية من التفكير الأسطورى بوصفه تفكيرا غير علمى يضلل الإنسان عن رؤية العالم رؤية منضبطة. كما لا ينفصل نقد التصورات الأسطورية للمرأة عن إصلاح تصوراتنا عن «سلم أولويات حقوق الإنسان»، وإصلاح تصوراتنا عن «مفهوم الحياة الآمنة» كمطلب يعلو أى مطلب. وكل هذا وغيره مرتبط ارتباطا جذريا بإصلاح طرق التفكير كشرط مسبق يسبق أية عملية انتقال نحو مجتمع أفضل. ومن ثم يؤدى كل هذا إلى إعلاء «التفكير النقدي» كمنهج حاكم لطرقنا فى التفكير؛ من أجل بناء دولة حديثة تصنع تاريخا جديدا.

إن الإيمان بمبدأ الإنصاف، جزء لا يتجزأ من نقد التصورات الأسطورية ضد المرأة، وهو نابع من إيماننا العام بحقوق الإنسان، بل وحقوق كل الكائنات؛ والإنصاف مبدأ بدهى لا يحتاج إلى البرهنة عليه، والإنصاف مبدأ تؤمن به كل نفس مستقيمة، وتؤمن به كل دولة تريد أن تؤسس ملكها على قواعد راسخة.

إن اتجاهنا نحو الإنسانية بمفهومها الشامل، هو أحد أهم الأسباب التى تدعو إلى الاحتفاء بتحول مصر إلى دولة منصفة للمرأة، وإلى حرم آمن للجميع: نساءا ورجالا. إن الشعور بالأمن على أرض الوطن، هو المطلب الأول فى الإستراتيجية الوطنية لحقوق الإنسان بالمعنى الشامل الذى يضمن للإنسان حقه أولاً فى الحياة وأن تكون هذه الحياة حياة كريمة، ومن هنا كان شعارنا فى جامعة القاهرة، وفى حدود الدائرة القريبة التى نعمل بها، هو حرم آمن للجميع.

ونحن الآن فى مربع آخر، سواء على مستوى الحرم الجامعى أو على مستوى حرم الوطن الكبير الذى نعيش فيه. إن مصر الآن أصبحت دولة آمنة يستطيع الإنسان أن يسير فى أى مكان، وأن يجلس فى أى مكان وهو آمن. إن هذه مسألة بالغة الأهمية، حيث يبقى الأمن هو المطلب الأول للإنسان، بل لأى كائن حى. وهذا ما نجده فى الغرائز الإنسانية والحيوانية، فالغريزة الأولى هى غريزة البقاء والحفاظ على الذات Self-preservation، ومن هنا فالأمن هو المطلب الأول. وفى حالة تعرض الكائن الحى لما يهدد ذاته، فسوف تعلو غريزة «الحفاظ على الذات» على أية غريزة أخرى، مثل الجوع والعطش والجنس. وعلى سبيل المثال عندما تكون جائعا أو تشعر بغريزة من الغرائز ثم تجد حيوانا مفترسا يريد أن يلتهمك هل سوف تفكر فى الأكل أو الشرب أو فى أية غريزة أخرى أم سيكون المطلب الأول لك هو أن تؤمن حياتك؟

ومن هنا جاء احتفاؤنا بتحول الحرم الجامعى والحرم المصرى عامة، إلى حرم آمن. ومفهوم الأمن هنا هو الأمن بمعناه الشامل الذى يشمل: الحفاظ على الحياة، والحفاظ على العقل، والحفاظ على حرية المعتقد، والحفاظ على العرض أو النسل أو النسب، والحفاظ على المال. وهذا المفهوم الشامل تجده فى إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، كما تجده فى علم أصول الفقه مستنبطا من نصوص القرآن الكريم، وهو ما يُعرف بالضروريات الخمس: «حفظ النفس، والعقل، والدين، العرض، والمال» ويختلف ترتيب هذه الأولويات باختلاف علماء الأصول، كما قد تختلف بعض مفرداتها.

وهذا هو المطلب الأول فى حقوق الإنسان الذى يعلو على أى مطلب آخر. ومن هنا كان المشروع المشترك مع الاتحاد الأوروبى ومع المجلس الثقافى البريطانى والسفارة البريطانية، لتحقيق حرم جامعى آمن، ومن هنا كان نجاح «وحدة مناهضة العنف ضد المرأة». ومن هنا كانت الجهود لتغيير أفكارنا عن المرأة. وهذه الجهود لن تتوقف؛ فالارتقاء والتطور لا يقف عند حد، ولايزال يتطور الإنسان وتتطور أفكاره وتصوراته ورؤيته للعالم حتى تأتى نهاية العالم، لايزال أمامنا الكثير، ولايزال أمامنا ذكريات سعيدة نرجو أن نصنعها معا فى المستقبل.

إن التحديات لا تزال أمامنا، من أجل إنصاف المرأة ومن أجل إنصاف الإنسان عامة. وأكبر التحديات هى تغيير أفكارنا؛ لأن الفكر أساس السلوك، وكل عمليات تطور الإنسانية ذاتها عبر تاريخها كانت مرتبطة بتغيير الأفكار وتطورها. ومن هنا فإننا سوف نواصل هذا التغيير، سواء عند أنفسنا أو عند زملائنا أو عند طلابنا. ونحن ندرك أهمية معركة تغيير الأفكار على درب تطوير الوعى وليس على درب استعادة الوعى. إن استعادة الوعى معناها أننا نريد أن نعود إلى مرحلة سابقة فى التاريخ. بينما هدفنا أن نتقدم إلى الأمام لصناعة مرحلة تاريخية جديدة أعلى من أى مرحلة فى الماضى. وهذا هو الفرق بين من ينظرون إلى الوراء لاستعادة الماضى، وبين من ينظرون إلى الإمام فيصنعون المستقبل.

ولقد أدرك جبران خليل جبران هذا الصراع بين القديم والجديد، عندما قال فى كتابه (البدائع والطرائف):

«فى الشرق اليوم فكرتان متصارعتان: فكرة قديمة وفكرة جديدة، أما الفكرة القديمة فستُغلب على أمرها؛ لأنها منهوكة القوى محلولة العزم. وفى الشرق يقظة تراود النوم؛ واليقظة قاهرة لأن الشمس قائدها والفجر جيشها.

وفى حقول الشرق، ولقد كان الشرق بالأمس جبّانة واسعة الأرجاء، يقف اليوم فتى الربيع مناديًا سكان الأجداث ليَهُبُّوا ويسيروا مع الأيام. وإذا ما أنشد الربيع أغنيته، بعث مصروع الشتاء وخلع أكفانه ومشى».

إن ما قاله جبران خليل جبران يتعلق بعملية التقدم بشكل عام، ولا عام بدون خاص، ولا خاص بدون عام. ولذا فإصلاح تصوراتنا عن المرأة جزء لا يتجزأ من الصراع بين القديد والجديد، وركن من أركان إصلاح تصوراتنا العامة.

وعلى هذا الأساس الإصلاحى العام، جاءت «وثيقة التنوير» فى جامعة القاهرة، وعلى هذا الأساس العام أيضا جاء مقرر «التفكير النقدي» على كل طلاب الجامعة كمقرر وجوبى لإزاحة التصورات الأسطورية عامة، ومنها التصور الأسطورى للمرأة. وكانت جامعة القاهرة هى أول جامعة تقرر التفكير النقدى فى الشرق الأوسط. ومن قبل ذلك كانت كليات الجامعة جزرا منعزلة لا يربط بين طلابها رابط فكرى موحد من خلال مقررات دراسية مشتركة. والآن أصبح يوجد هذا الرابط الفكرى. وبعد إعلاننا التفكير النقدى كمقرر دراسى على كل طلاب الجامعة، جاء بعد ذلك بشهور إعلان الاتحاد الأوربى أن التفكير النقدى له دور بارز فى مناهضة أفكار التطرف والعنف والإرهاب.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢١»

١٧ أكتوبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا يُعرف الحق بالأغلبية، ولا يُعرف بالسير وراء القطيع، وليس الماضى مقياسا للحق والحقيقة، بل الحق يُعرف بالحجة البرهانية والدليل اليقينى، والحقيقة هى التصور الذى يتطابق مع الواقع الخارجى طبقا للمنهج التجريبى. إن العقل النقدى هو أساس التحول من الجاهلية إلى الإسلام، والعقل النقدى نفسه يجب أن ينطلق من منهجيات المنطق والتفكير العلمى.

ولقد عانت المرأة كثيرا عبر التاريخ من انتشار التصورات الأسطورية ضدها، وقد وصل هذا الانتشار حد الأغلبية.

وجيلا وراء جيل كان الناس يسيرون وراء ما يسمى بالأغلبية الاجتماعية وحسب قواعدها، على اعتبار أن مقياس الحق عندهم كان عندهم هو أن الأغلبية مقياس لمعرفة الحق والحقيقة! وللأسف لا تزال هذه الطريقة فى التفكير مسيطرة على كثير من الناس. ولا شك أن مواقع التواصل الاجتماعى تأتى كبرهان على سيادة هذه الطريقة الخاطئة، فأغلب الناس يشكلون رأيهم فى أى موضوع لمجرد انتشاره على مواقع التواصل. وكثيرا ما رأينا أن رأى الأغلبية على مواقع التواصل ما هو إلا رأى متسرع شكله الناس دون برهان يقينى. ويتعرض الكثيرون للقتل المعنوى نتيجة احترافية الكتائب الإلكترونية التى تسوق أغلب الناس مثل القطيع.

وما مواقع التواصل الاجتماعى الآن إلا منصات معلنة للنميمة وللأهواء التى تشكل الرأى العام وتصنع من مقياس الأغلبية مقياسا للحقيقة. ويرفض العقل النقدى هذا المقياس، ويشهد تاريخ العلوم وتقدمها على ذلك فتقدم العلوم كان خروجا دوما على رأى القطيع، وكان رفضا لرأى الأغلبية.

والقرآن نفسه رفض مقياس الأغلبية فى معرفة الحقيقة: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) الأنعام: ١١٦.

إن عمليات القتل المعنوى على وسائل التواصل الاجتماعى تطال المرأة بل وتطال الجميع. وهو الأمر الذى يؤكد أن وأد المرأة لم يصبح بعد شيئا من الماضى كما يتخيل الكثيرون، بل لا تزال الأنثى يتم وأدها معنويا فى ثقافتنا، فالوأد ليس مسألة تتعلق بوأد الجسد فقط، بل الوأد يطال أيضا الروح ويطال المكانة! (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، النحل: ٥٨، ٥٩، (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)، التكوير: ٨، ٩.

وإذا كان الوأد الجسدى قد انتهى، فلا تزال المرأة معرضة حتى الآن فى كثير من القطاعات للوأد الروحى والمعنوى، نتيجة جملة الأحكام التى يحكم بها البعض عليها، ونتيجة التصورات الأسطورية التى لا تزال تحكم عقلنا. ويمكن الزعم أن هذه المشكلة تتجاوز تلك التصورات إلى ما هو قابع وراء هذه التصورات من طرق تفكير فاسد.

ومن أسف فقد انتقلت تلك التصورات وما وراءها من الطرق الفاسدة فى التفكير، من نطاق الثقافة الاجتماعية إلى الخطاب الدينى فى فهمه وتفسيره للقرآن الكريم. ومن ثم، فقد أصبح واجبا من واجبات تأسيس خطاب دينى جديد، عدم الاكتفاء بالمقولات العامة التى تؤكد فكرة تكريم المرأة بينما تمارس إهانتها فى الواقع. ويجب تجاوز ثقافة الشعارات الرنانة إلى نقد صارم لطرق التفكير الفاسدة، وتفكيك تصور تلو التصور من التصورات التى تحكم رؤيتنا للمرأة، وإعادة بناء تصورات جديدة، وإعادة فهم النصوص القرآنية وفق سياقاتها، وحسب ضوابط فهم القرآن بالقرآن، وطبقا لما صح وثبت ثبوتا يقينيا (الأحاديث المتواترة)، وليس طبقا لما ثبت ثبوتا ظنيا عن النبى عليه الصلاة والسلام.

وبمناسبة أن هذه السلسلة من المقالات عن نقد التصورات الأسطورية ضد المرأة، ونقد ما تستند إليه من طرق تفكير فاسدة، فإن من اللازم أن نضرب بعض الأمثلة لكى نوضح أن تلك التصورات تستند إلى مقاييس فاسدة فى الاستدلال، ومن هذه المقاييس الفاسدة فى الاستدلال كما ذكرنا سابقا- أن «الحق يُعرف بالأغلبية»!

ولعل هذا المقياس الباطل هو أحد أسباب وأد المرأة جسديا فى الماضى، ووأدها معنويا فى الحاضر فى كثير من القطاعات الاجتماعية والتيارات الدينية المتطرفة التى تتأثر دون أن تدرى بالموروثات الاجتماعية عبر التاريخ. وهنا لابد من التذكير أن أهم متطلبات تأسيس خطاب دينى جديد هو التخلص من الموروثات الاجتماعية، وهو ما أوضحناها مرارا وتكرارا لاسيما فى كتابنا «نحو تأسيس عصر دينى جديد»، وعلى سبيل المثال جاء فى مقدمة هذا الكتاب:«باتت من الضرورات الملحة اليوم العودة إلى الإسلام المنسى، لا الإسلام المزيف الذى نعيشه اليوم. ولا يمكن هذا إلا بتخليص الإسلام من الموروثات الاجتماعية وقاع التراث، والرؤية الأحادية للإسلام».

لقد تشكلت كثير من أفكارنا عن المرأة نتيجة خلط الموروثات الاجتماعية بالدين، وفهم نصوص القرآن الكريم فى ضوء هذه الموروثات، بل البعض حول هذه الموروثات إلى دين فى الأحاديث الموضوعة المصطنعة التى نسبوها كذبا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. وزاد الأمر سوءا عند من يتمسكون بـ «قاع التراث» دون تمييز فى فهم الدين. وهذا يجرنا أيضا إلى مقياس باطل فى طرق التفكير، فالبعض يعتقد أن «الماضى مقياس الحق والحقيقة»! وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه آلية التفكير بالماضى، مع أن القرآن الكريم نفسه رفض هذه الآلية فى التفكير كما رفض غيرها من الآليات والمقاييس الفاسدة، (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)، لقمان: ٢٠، ٢١.

وتأسيسا على ذلك، لعل من أهم المهام التى تقف أمامنا هى تغيير تصورات الناس عامة التى تعلق بأهداب العقل، ومنها تصوراتهم عن المرأة. ويصل الأمر إلى ما أبعد من ذلك، وهو تغيير طرق تفكير الناس ونقد طرق الاستدلال والاستنباط والاستقراء التى تكمن فى بنية عقولهم، حيث يكشف الحفر الأركيولوجى تحت التصورات الأسطورية عن الخلل العميق فى طرق التفكير.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٢»

٢٤ أكتوبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا تزال هناك تحديات كثيرة أمام مجتمعاتنا لكى تنتقل نحو المستقبل. وهذه هى طبيعة الحياة وسنن التاريخ، كلما انتهينا من تحد نواجه تحديات أخرى. وأعيد الإلحاح على أن أهم تحد يواجهنا هو تحدى تغيير أفكار الناس؛ لكى تكون أفكارا محكومة بالتفكير المنطقى النقدى. ولا شك أن عمليات تغيير طرق التفكير لا يمكن أن تحدث بين عشية أو ضحاها، بل فى الغالب تأخذ وقتا طويلا نسبيا فى أى مجتمع من المجتمعات إلا إذا كانت هناك قوة قاهرة تؤدى إلى هذا التغيير.

ومن أهم الأفكار التى يجب أن تتغير فى مسألة الذكورة والأنوثة، فكرة أفضلية الذكورة على الأنوثة. تلك الفكرة التى دللنا كثيرا فيما مضى من كتاباتنا على تهافتها، وأنها لا تعدو أن تكون محض أسطورة من الأساطير العالقة بعقولنا. واليوم نؤكد على ذلك من زاوية أخرى، هى زاوية وحدة الأصل والمنشأة، فالذكر والأنثى. يشتركان فى وحد الأصل، وهذا ما أكده القرآن الكريم، (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى. مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى)، (النجم، ٤٥ ـ ٤٦)، (خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ..)، (النحل: ٤)، لاحظ لفظة (الإنسان) التى تشمل الإنسان ذكرا أو أنثى. إن الحديث عن مخلوق واحد هو الإنسان، وليس حظ الذكور فى مقام الإنسانية بأفضل من حظ الإناث، فكلاهما إنسان، وكلاهما وجهان لعملة واحدة، ولا توجد عملة بوجه واحد، كما أن أحد وجهى العملة ليس بأفضل من الوجه الآخر. ويتأكد هذا فى القرآن فى مواضع كثيرة، مثل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ..)، (الحج: ٥)، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً..)، (النساء: ١). ففى البدء خلق الله الناس من تراب، وخلق الناس من نفس واحدة، ثم خلق منها زوجها؛ و«نشر وفرق من تلك النفس وزوجها على وجه التناسل والتوالد رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً». (تفسير الألوسى، روح المعاني (٢/ ٣٩٣).

فكل هذه المراحل تنطبق على الاثنين دون خلاف بينهما فى ذلك. والذكر والأنثى يتكونان فى رحم واحد حتى يخرج كل منهما طفلا، فليس للذكر رحم مميز يتكون فيه، (..وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا..)، (الحج: ٥). إذن فلا يحتج أى طرف بأفضلية أصله فى التكوين، ولا يحتج بأنه كان فى رحم يتكون فيه غير الرحم الذى يتكون فيه الآخر.

ومن التصورات الأسطورية الأخرى ذات العلاقة بفكرة أفضلية الذكر على الأنثى، تصور أن الأم هى السبب فى تحديد جنس الجنين سواء كان ذكرا أو أنثى. وكان هذا التصور الأسطورى سائدا عبر تاريخ البشرية، وربما يكون له وجود فى بعض طبقات المجتمع حتى الآن، لدرجة أنك تجد بعض الرجال الذين ينجبون إناثا من امرأة، ربما يتزوجون أخرى أو أخريات رغبة فى أن تنجب أو ينجبن لهم ذكورا!

وقد كشف العلم الحديث عن تهافت وبطلان هذا التصور الأسطورى. وقد أصبح من المعروف علميا أن طبيعة تكوين الحيوان المنوى من الأب هى التى تتحكم فى تحديد جنس الجنين وليس بويضة الأم؛ حيث إن نوع الحيوان المنوى الذى يلتقى بالبويضة هو المسئول عن ذلك؛ فإذا كان الحيوان المنوى يحمل كروموسوم «س» والتقى بالبويضة، فتصبح الخلية حاملة «س س»، ويكون الجنين أنثى. فى حين لو التقى حيوان منوى يحمل كروموسوم «ص» بالبويضة، يكون الجنين الناتج ذكرًا. ومن هذا يتضح أن الأب هو السبب المباشر فى تحديد جنس الجنين وليس الأم. وطبعا ذلك لا يحدث بإرادة مقصودة من الأب، فهى الإرادة الإلهية التى جعلت لكل شيء سببا، (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)، (فاطر: ١١). فإذا كان الرجل هو السبب المباشر لتحديد جنس الجنين، فإن الله هو السبب النهائى الذى دبر هذا السبب المباشر. أو بلغة أخرى فإن الرجل هو العلة المباشرة، أما الله المبدع فهو العلة غير المباشرة أو العلة الأولى أو العلة النهائية التى تقف وراء كل شيء.

ومهما يكن من أمر ذلك، فإن المحصلة التى يمكن التأكيد عليها من القرآن، هى وحدة المنشأ الأول للإنسانية من التراب، ومن نفس واحدة، ثم بعد ذلك تأتى وحدة المنشأ من النطفة والانقسام لذكر أو أنثى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا..)، (فاطر: ١١).

وهنا يمكن القول، إن الإسلام يسوى بين أصل الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية الأنطولوجية (الوجودية)؛ حيث خلق الله الاثنين من طينة واحدة ومن معين واحد؛ فلا فرق بينهما فى الأصل والفطرة، ولا فى القيمة والأهمية. والمرأة هى نفس خلقت من النفس ذاتها لتنسجم معها، وروح خُلقت لتتكامل مع روح، وشطر مساو لشطر، (أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى)، (القيامة: ٣٦ ـ ٣٩)

وبناء على وحدة الأصل، يقرر الإسلام أن قيمة أحد الجنسين لا ترجع إلى كون أحدهما ذكرًا والآخر أنثى، بل ترجع إلى الكفاءة الشخصية والعمل الإيجابى، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)، (الحجرات: ١٣).

فهذه الآية الكريمة تنص فيما تنص على أن ليس للذكورة والأنوثة من حساب فى تحديد الأفضلية، ولا دور لها فى ميزان «الله» الذى يُظهر مَن الأفضل، إنما هناك أمر واحد هو الذى يحرك كفتى هذا الميزان علوا وانخفاضا، إنه «العمل» كمقياس يُعرف به فضل الفرد وتتحدد به قيمته، سواء كان ذكرًا أو أنثى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، بدون أى تمييز بينهما على أساس تباين الجنس؛ فالكل سواء فى وحدة الأصل، والكل سواء فى القيمة الوجودية، بعضهم من بعض، والكل سواء فى التراتب بين الكائنات من حيث المبدأ، ويعلو وينخفض بينها بناء على طبيعة عمله وليس بناء على طبيعة تكوينه البيولوجى أو الفسيولوجى.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٣»

٣١ أكتوبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

يتفرع عن التكافؤ بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية الأنطولوجية (الوجودية)؛ نتائج عديدة، من بينها: التكافؤ والمساواة بينهما فى المسئولية الخاصة والعامة، وفى الثواب والعقاب على الأعمال، فلا حقوق بدون واجبات، فإذا كان من الحق الأصيل للمرأة حصولها على حقها فى التكافؤ الإنسانى، فإن هذا الحق يرتب عليه واجب تحملها المسئولية الشخصية عن أعمالها.. والخطاب القرآنى عام فى هذا السياق للإنسان بصرف النظر عن جنسه ذكرا أم أنثى.. (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) (النجم ٣٩)، والمرأة إنسان بكامل المعنى وبكامل تحمل المسئولية.. (كل امرئ بما كسب رهينٌ) (الطور- ٢١).. (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى)، (سورة الأنعام: ١٦٤). والمعنى كما يقول الشوكاني: «أى لا يؤاخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشر عليها لا يتعداها إلى غيرها»، (انظر: فتح القدير للشوكاني: ٢/ ٢١١).

إن المسئولية الفردية يتحملها كل فرد من الجنسين بلا تفاوت؛ المرأة مسئولة وحدها عن عملها، والرجل مسئول وحده عن عمله. ويؤكد القرآن الكريم فى كلمات قطعية الدلالة -وعلى نحو لا لبث فيه- أن الجنسين يتساويان فى الجزاء ثوابا وعقابا.. (للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن) (النساء: ٣٢).. (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل: ٩٧).. (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) (النساء: ١٢٤)..

وينص القرآن الكريم فى تقرير العقوبات الدنيوية أيضا على المساواة الكاملة، بين الرجل والمرأة، بلا تمييز، وبلا فرق، وبلا تفاوت، وبلا مفاضلة بين أحدهما على الأخر. إن الجميع سواسية فى ميزان العدالة، ولا ميزة تخول لأحدهما الحصول على عقوبة أقل من غيره عند الوقوع فى الخطأ الذى يستوجب عقابا. وأيضا لا أفضلية لأحدهما فى الحصول على ثواب أكبر من غيره عند القيام بعمل يستلزم جزاء.

وزد على هذا أنه لا ميزة يحصل عليها أحدهما بسبب انتمائه لعائلة عالية المكانة والطبقة، ولا انتقاص من ثواب عمل صالح بسبب الانتماء إلى عائلة ضلت الطريق.. (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين. وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين) (سورة التحريم: ١٠- ١١).

وإذا كان القرآن الكريم يكافئ بين الرجل والمرأة فى المسئولية الخاصة والفردية والذاتية، فإنه يكافئ بينهما كذلك فى المسئولية العامة والاجتماعية والموضوعية كمواطنين لهما كافة حقوق وواجبات المواطنة، ومن بينها المسئولية التى تلقى على عاتق الجانبين من الرجال والنساء المسئولية المشتركة عن استقامة المجتمع أو انحرافه.. (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيزٌ حكيمٌ)،(سورة التوبة: ٧١) .. (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون. وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذابٌ مقيمٌ)، (سورة التوبة: ٦٧ ٦٨).

إن المسئولية العامة يتحملها الجميع، رجالا ونساء؛ حيث إن الآثار السلبية المترتبة على المشاكل التى يسببها البعض للمجتمع سوف يتحملها الجميع بدون تمييز بين النساء والرجال، وأى ثقب فى السفينة سوف يؤدى بغرق كل من عليها بصرف النظر عن جنسهم.. (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، (سورة الأنفال: ٢٥). والمعنى أدركه أبو السعود فقال: «أى لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره»، (انظر: تفسير أبى السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج ٤ /ص ١٦). ولذلك تتحمل المرأة المسئولية عن استقرار المجتمع أو ضياعه كما يتحملها الرجل.

ولقد أكدت الأمم المتحدة على موقعها الرسمى أن المساواة بين الجنسين أصبحت جزءا من القانون الدولى لحقوق الإنسان بموجب الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الذى اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨. وقد أقرت تلك الوثيقة البارزة فى تاريخ حقوق الإنسان بأن «جميع البشر يولدون أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق»، وأن «لكل فرد الحق فى جميع الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان، دون تمييز من أى نوع، مثل العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو المولد أو أى وضع آخر».

وعادت الأمم المتحدة لتؤكد أن المساواة وعدم التمييز يمثلان جزءا من أسس سيادة القانون.. «جميع الأشخاص، والمؤسسات والكيانات، العامة والخاصة، بما فيها الدول نفسها، يجب أن يحاسبوا وفقا لقوانين عادلة ونزيهة ومنصفة ولهم الحق فى أن يتمتعوا بحماية القانون دونما تمييز على قدم المساواة» (الفقرة ٢). وعقدت الدول المشاركة العزم أيضا على احترام المساواة فى الحقوق بين الجميع دونما تمييز على أساس العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين (الفقرة ٣). (راجع الموقع الرسمى للأمم المتحدة على شبكة المعلومات الدولية).

إذن فتمتع المرأة بحق المساواة أمام القانون، سواء بشكل عام أو فى مجال العقوبات القانونية، أمر لا ريب فيه على المستوى الدينى فى القرآن الكريم أو على مستوى الإعلانات الأممية للأمم المتحدة.

وفى تصورى أن المسألة لا تتوقف عند حد المطالبة بالحقوق للمرأة، بل تتجاوزها إلى تحمل المرأة المسئولية كاملة؛ لأن كل حق يقابله واجب. ويجب أن يصاحب دعوات الحصول على الحقوق عالميا دعوات أخرى بالتوازى لتحمل الواجبات والمسئوليات. إن المساواة كل لا يتجزأ، سواء فى مميزاتها أو فيما يترتب عليها من مسئوليات فردية أو عامة، فى الدنيا وفى الآخرة.

ومن هنا يجب إعادة تحرير مفهوم المساواة وإعادة بنائه حتى يمكن تأسيس خطاب جديد، وحتى يمكن الدخول بمجتمعنا إلى عصر جديد.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٤»

٧ نوفمبر ٢٠٢١ م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

أدى التصور الأسطورى للمرأة فيما أدى إليه، إلى فقدانها لحقوقها المدنية جزئيا أو كليا عبر التاريخ فى كثير من المجتمعات والثقافات والديانات. ولا شك أن مناهضة ذلك التصور الأسطورى وما يتضمنه من مفاهيم متهافتة، خطوة على طريق التأسيس النظرى لحصولها على حقوقها كإنسان كامل الأهلية، ومن أهم هذه الحقوق التى نقف عندها اليوم، حق المعاملات المالية والأهلية الاقتصادية، وحقها الأصيل فى اختيار شريك الحياة.

وإذا توقفنا عند التصور الإسلامي، نجد أنه سوّى بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية، ولم يقرر أى نوع من أنواع التمييز على كافة مستوياتها: حيث أعطاها حق الملكية مثل الرجل، وشدد على حقها فى ممارسة أشكال وطرق التملك، ولها حق التعاقد، ولها دون أى تمييز أن تمارس التجارة من بيع وشراء، ومساقاة ومزارعة، وشراكة ومضاربة، وغيرها. ولها حق الهبة، سواء أن تهب لغيرها أو يهب غيرها لها، كما لها حق الوصية، سواء أن توصى لغيرها أو يوصى غيرها لها. وأعطاها الحق فى توكيل الغير وأن يوكلها الغير. ولها الحق الكامل فى ضمان الآخرين وأن يضمنها الآخرون، مثلها فى ذلك مثل الرجل تماما، لا فرق بينهما فى الأهلية الاقتصادية ولا فرق بينهما فى مباشرة كافة التصرفات المالية. وقد أباح لها فى ذلك دون أى تمييز كل ما أباح للرجل سواء بسواء، وجعل لها كالرجل حق مباشرة العقود المدنية بكافة ألوانها، وجعلها صاحبة الحق المطلق على ملكها، ولم يجعل للرجل أيا كانت صفته أو قرابته منها أى سلطة عليها إلا بالمعروف والتراضي؛ فلها أن تتملك المنقولات والعقارات والأراضى وكافة أنواع الممتلكات والأموال.

إن للمرأة كينونتها الفردية، وأهليتها الكاملة، وشخصيتها المستقلة، ومن المستقر أنها طالما وصلت سن البلوغ والرشد، مثلها فى ذلك مثل الرجل، لها ذمة مالية مستقلة كلية ومنفصلة تماما، تتحمل مسئوليتها وتمتع بالحقوق المالية كاملة، فهى تتصرف فى مالها وتديره بكامل إرادتها وبنفسها، ولها أن توكل آخر أو آخرين فى إدارة ممتلكاتها وأموالها جزئيا أو كليا. وليس من حق أحد أن يتولى إدارة أموالها إلا بناء على رغبتها وبإرادتها الحرة الكاملة بتوكيل منها. ولها أن تضمن غيرها، وأن يضمنها غيرها، وأن توصى لمن تشاء ممن هو أهل للوصية، ويصح أن تكون وصيًا لا فرق فى ذلك بينها وبين الرجل...إلخ.

وتستمر ذمتها مستقلة وكاملة بعد الزواج، تدير ممتلكاتها وأموالها مباشرة ودون تدخل من أحد، وعقد الزواج لا يغير من هذا الوضع شيئا، ولا يعطى للزوج عليها أية سلطة ولا أى حق فى ذلك إلا بالتراضى بينهما. ولها أن تقوم -أو لا تقوم- بتوكيله بناء على إرادة ورغبة كاملتين منها، ولها أن تعطيه الوكالة، ولها أن تسحبها حسب رؤيتها وحسب رغبتها، لا تثريب عليها إن أعطت وإن منعت. ولا يعنى الزواج أن مالهما قد أصبح مشتركا أو شراكة بينهما. وفى كل الأحوال، فإن الزوج مكلف بالإنفاق عليها حتى لو كانت غنية، ودون أن يمس مالها الخاص، إلا بالتراضى التام بينهما.

هذه كانت حقوق المرأة فى الشئون المالية بوصفها جانبًا من جوانب الحقوق المدنية التى تتمتع بها كاملة غير منقوصة. وتستمر وتتواصل أهليتها المدنية فى حقها الكامل فى اختيار الزوج. وينص الإسلام نصًا صريحًا على أن للمرأة ثيبًا أو بكرًا كامل الحرية فى اختيار الزوج؛ فلها أن تقبله، ولها أن ترفضه، ولا حق لأبيها أو وليها فى إجبارها على الزواج ممن لا ترضاه. ولا يوجد أى نص فى القرآن الكريم يحول بين المرأة وهذا الحق فى اختيار شريك الحياة، وتؤيد هذا الأحاديث الثابتة بشكل واضح وصريح؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم. : تُسْتَأمر النساء فى أبضاعهن، والثيب يعرب عنها لسانها، والبكر تُسْتَأمر فى نفسها، فإن سكتت فقد رضيت. ومعنى الاستئمار هو: عرض الموضوع عليها لتقرر هى وتعطى الأمر؛ فلا يعقد عليها حتى يتم الرجوع إليها ويعرض الأمر عليها بالموافقة أو الرفض حسب اختيارها. وجاء فى الصحيحين: أن خنساء بنت جذام، زوجها أبوها وهى كارهة، وكانت ثيبًا؛ فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرد نكاحها. وجاء عن ابن عباس: أن جارية بكرًا أتت النبى صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة، فخيّرها النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقالت بعد أن جعل الحق لها: «قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أُعْلِم النساءَ أن ليس للآباء من الأمر شيء».

وهنا نتوقف قليلا عند موقف هذه الفتاة الرائع، تلك الفتاة التى أرادت الدفاع عن حق المرأة عامة فى اختيار شريك الحياة، وبعد أن أكد النبى هذا الحق، أعلنت موافقتها على رأى أبيها بإرادتها الحرة، وقامت بتسجيل موقفها للتاريخ، وهو إعلام النساء أن هذا حقهن وأنه لا يوجد للآباء حق فى إجبارهن على الزواج من أى شخص.

إذن، فإن هذا الدين لم يفرق بين الرجل والمرأة فى أهلية مباشرة التصرفات المالية والاقتصادية، ولا فى حق اختيار الزوج، بوصفها حقوقا مدنية أصيلة للمرأة مثلها فى ذلك مثل الرجل. ولا يوجد فى القرآن الكريم ولا فى السنة الثابتة ما يشير إلى عكس ذلك. فقد أعطى الدين فى منابعه الأصيلة والأصلية، المرأة العاقلة الرشيدة، الأهلية الاقتصادية الكاملة، وأكد حقها فى الملكية والتملك، والتجارة، والمشاركة، ولها أن تقوم بالمضاربة، ولها أن توكل وتتوكل، ولها حق ضمان الغير أو ضمان الغير لها، ولها أن توصى ويوصى لها، ولها أن تزارع، وأن تهب، وأن توقف أوقافا...إلخ. وأحكامها فى كل هذه المعاملات المالية هى أحكام الرجل، يحل لها من المعاملات المالية ما يحل له، ويحرم عليها ما يحرم عليه، وهى مثله محكومة بالقوانين نفسها، ولها من الحقوق وعليها من الواجبات وسائر ألوان الالتزام ما له وما عليه.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٥»

١٤ نوفمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

لا شك أن إعادة بناء مفهوم المرأة من أهم متطلبات إعادة تشكيل رؤية العالم فى أذهاننا، بوصف الأنثى أحد شقى تكوين المخلوقات. ومثلما أن أى تكوين لا يكتمل إلا بهذين الركنين، فإن أية مسألة لا يمكن أن تكون منتجة لآثارها الإيجابية دون أن يكون للرجل والمرأة دور فى تقدير الموقف بشأنها، خاصة إذا جاء هذا التقدير بعد حوار منتج بين الطرفين.

فالحوار أشبه بعملية التفاعل الكهربى بين القطب الموجب والقطب السالب، ولا يمكن إنتاج تيار كهربى إلا بالاثنين معا.

وإذا عدنا للقرآن الكريم نجد أن حق المرأة فى إعطاء الرأى وتقدير الموقف وحله، حق أصيل، والمساحة مفتوحة أمامها للحوار حتى ولو كانت فى حوار مع الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه. والحوار الذى قامت به تلك المرأة ليس مجرد تنفيس ولا استئناس، بل هو حوار ترتبت عليه أحكام شرعية صححت مواقف بعض الرجال الذين ارتكنوا لعادات اجتماعية موروثة، وحملتهم المسئولية وكلفتهم أعباء جديدة.

وفى هذا الموضع نتذكر جيدًا ما جاء فى مطلع سورة المجادلة: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)، (المجادلة:١-٥).

ونجد من الأحاديث الصحيحة ما يؤكد هذا المعنى؛ حيث روى أحمد فى مسنده عن خويلة بنت ثعلبة، قالت: فى والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة. قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علىّ يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علىّ كظهر أمى. قالت: ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة، ثم دخل علىّ، فإذا هو يريدنى عن نفسى، قالت: قلت: كلا والذى نفس خويلة بيده، لاتخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه.

قالت: فواثبنى، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عنى. قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه.

قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فى قرآن؛ فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنًا»، ثم قرأ علىّ: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)... إلى قوله تعالى:(وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ). قالت: فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مريه فليعتق رقبة»، قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت: والله إنه لشيخ ما له من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر». قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنا سنعينه بعرق من تمر». قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر. قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه، ثم استوصى بابن عمك خيرًا». قالت: ففعلت.

وتدل هذه الحادثة دلالة قطعية على احترام الإسلام لرأى المرأة، وعلى صيانته لمكانتها وكرامتها فى مقابل أى تعسف قد تتعرض له. وقد يؤدى رأيها لإصدار تشريع جديد. نعم رأيها يؤدى لصدور تشريع جديد يرتب أعباء على الرجل حتى يلتزم بالقواعد الأسرية الرصينة. ومثلما كانت سببا فى صدور تشريع إلهى جديد، فمن باب أولى أن يكون لها دور مثل الرجل فى صدور التشريعات القانونية البرلمانية، بلا تفاوت ولا تفرقة ولا تميز.

إن الحق أمر يتم التوصل إليه بالحجة. والمعيار هو المسوغات ودقة الانتقال من المقدمات إلى النتائج وتحقيق المصلحة العامة، ولا فرق أن تأتى الحجة من الرجل أو المرأة. وهذا ما كان يدركه كبار الصحابة، ومثال الفاروق عمر يستدعى نفسه عندما قالها مدوية من على المنبر، عندما اختلفت معه امرأة تمتلك حجة واضحة وبينة بذاتها.. حيث قال: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

ولا يمكن أن ننسى الرأى الحكيم من أم سلمة الذى أخذ به الرسول صلى الله عليه وسلم فى أزمة كبرى حدثت فى صلح الحديبية، فبعد أن فرغ الرسول من كتابة المعاهدة، حاك فى صدور البعض ما حاك من الوساوس لدرجة نشوء احتمال للخروج على طاعة الرسول؛ فعندما قال الرسول للصحابة: «قوموا فانحروا ثم احلقوا».

قال الراوي: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة رضى الله عنها فذكر لها ما لقى من الناس. فقالت: يا نبى الله، أتحب ذلك؟ اخرج ولا تكلم منهم أحدًا حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا... (أخرجه البخارى وأبو داود فى جزء من رواية مطولة، حسبما ورد فى تيسير الوصول ٣ : ٢٤٩ ـ ٢٥٥).

وهكذا نجد من هذه الأمثلة الحية من القرآن الكريم ومن حياة النبى صلى الله عليه وسلم، أن رأى المرأة يصل تأثيره إلى حد صدور تشريعات جديدة، كما أنه يصل إلى درجة من الحكمة التى تمكن من تجاوز أزمة كبرى كانت سوف تحدث شرخا كبيرا. ويمكنها أن تعدل من حكم صدر من قامة كبيرة مثل عمر بن الخطاب وتعود به إلى حكم الوحى بوصفه المنبع الصافى.

ومن هنا فإن أحد أهم معالم تأسيس خطاب دينى جديد هو العودة للمنابع الصافية حتى ولو كان فى ذلك خلاف أو اختلاف مع بشر مهما بلغت مكانته.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٦»

٢١ نوفمبر ٢٠٢١ م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

على الرغم من وضوح النصوص والمواقف فى الوحى الكريم من عدم التمييز بين المرأة والرجل فى التعليم والبحث العلمى، فإن كثيرا من المجتمعات الإسلامية إجمالا، سارت فى طريق أخر ساد فيه العقل الجمعى الباطن الذى لم يتغير ولم ينتقل من عصر الجاهلية إلى عصر الأنوار، وسيطرت عليه الأساطير المؤسسة لطريقتها فى التفكير، وتغلبت فيه الموروثات الاجتماعية التى تقلل من قدرة المرأة على المشاركة فى صناعة تاريخ العلوم والفلسفة مثلها مثل الرجل، بل عانت من التمييز لقرون فى حق التعلم والتعليم فى كثير من القطاعات الاجتماعية بل وفى كثير من التيارات الدينية المذهبية.

وأعلم أن البعض لن يرضيه هذا القول، وسوف يستشهدون بنماذج نسائية متميزة علميا فى القرون الماضية. ولا شك فى صحة تلك الاستشهادات، لكنها تظل حالات جزئية معدودة ولا تشكل حركة ولا تيارا عاما فى المجتمعات القديمة، ولا يمكن عدها سمة عامة إذا نظرنا إليها فى ضوء النسب المئوية بين النساء والرجال الذين يشكلون تلك المجتمعات.

ويمكن أن أورد لك بعض هذه النماذج المشرقة فى تاريخنا، لكنها تظل نماذج جزئية، ومن الخطأ فى الاستدلال الانتقال من «الحكم على الجزء» كمقدمة، إلى «الحكم على الكل» كنتيجة. فهذه مغالطة منطقية لا تزال تحكم طريقة تفكير كثير من الناس للأسف.

من تلك النماذج الجزئية المشرقة، أن النساء كن يحتشدن فى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يسمعن النبى ويصلين معه من أجل التعلم. وروى مسلم وأبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل علىَّ النبى عليه الصلاة والسلام وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تعلمين هذه رُقية النملة (تحسين الخط) كما علمتها الكتابة». وكانت أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر وأم المؤمنين سلمة كما ذكر الواقدى ـ تجيدان القراءة لكن لم تكتسبا مهارة الكتابة. ولا أحد ينسى دور السيدة عائشة وأختها أسماء فى تعليم المسلمين شئون دينهم، ودور أم الدرداء الفقيهة العالمة التى وصفها النووى بقوله: «اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم». وقد ذكر النووى فى كتابه «تهذيب الأسماء» أسماء لبعض النساء العالمات اللاتى تولين رسالة نشر العلم وتعليمه. وذكر ابن خلكان أن الإمام الشافعى كان يحضر مجلس علم السيدة نفيسة وسمع عليها الحديث. وذكر أبو حيان من بين أساتذته ثلاثًا من النساء، هن: مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى، وشامية التيمية، وزينب بنت المؤرخ الرحالة الطبيب عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب: «الإفادة والاعتبار». ويروى لنا التاريخ الإسلامى أسماء كثيرة لنساء كان لهن باع فى العلم والتعليم. ولعل فى اهتمام المؤرخين بتسجيل أسماء تلك النساء لمؤشر صادق على تقديرهم لهنّ واعتبار جهودهن فى هذا المجال جديرة بالتسجيل والتأريخ.

ومع هذا، فإن تلك نماذج فردية لا تشكل نسبة مئوية معتبرة فى زمن كل منها، ولا تصلح للقول بأن المرأة المتعلمة أو العالمة كانت تمثل حالة عامة فى المجتمع القديم. وظلت المرأة تعانى من التمييز مقارنة بالرجل حتى مطلع العصور الحديثة إلا فى حالات قليلة.

ويجب التأكيد على وجود فجوة معرفية وسلوكية بين القرآن الكريم والسنة الصحيحة الثابتة من ناحية، والمجتمعات الإسلامية من ناحية أخرى. وفى بعض الأحيان كانت لا توجد فجوة معرفية، لكن كانت هناك فجوة سلوكية، حيث كان الناس يرفعون الشعارات ويرددون نصوص الوحى الكريم، لكنهم كانوا عند الممارسة الفعلية يفعلون شيئا آخر، فى بعض الأحيان بوعى منهم لتحقيق مصالحهم الطبقية أو النوعية، وفى أحيان أخرى كان يحدث هذا بدون وعى ولا علم؛ حيث يسيطر عليهم الهوى، (بَل اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ)، (الروم ـ ٢٩).

وكما قلنا أعلاه، فقد كان يقودهم العقل الجمعى الباطن الذى لم يتغير ولم ينتقل من عصر الجاهلية إلى عصر الأنوار. وفى بعض الأحيان، كانت التقاليد الاجتماعية الموروثة هى العامل الأكثر تأثيرا. وربما تجتمع كل تلك العوامل وغيرها معا على أرضية واحدة لترتوى من المياه العميقة الباطنة، أعنى الأساطير المؤسسة لطريقتهم فى التفكير ضد المرأة.

إن النصوص التى جاءت عن النبى عليه الصلاة والسلام فى المساواة بين الذكر والأنثى فى التعلم والتعليم دون تمييز بينهما، ظلت فى أحيان كثيرة مجرد مُثل عليا، لم ينفذها كثير من المسلمين فى الواقع الفعلى. وإذا كانت النماذج الحديثة، التى جاءت عن الرسول، نماذج كثيرة ومتنوعة، فإنّا سنكتفى فى هذا الموضع بنموذجين اثنين، مثل قوله: «من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، ... وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع،... وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء،... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، ..وإن العلماء ورثة الأنبياء، ..وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما وَرَّثُوا العلم، فمن أخذه بحظ وافر»، رواه أبو داود والترمذى. وقال أيضا: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم... إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلمى الناس الخير». رواه الترمذى، وقال: حديث حسن. وعندما كان الرق جزءا من المجتمع، شجع الرسول عليه الصلاة والسلام على تعليم الإماء وتحريرهن من العبودية، قال النبي: «أيما رجل كانت عنده وليدة (أى جارية)، فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران»، رواه البخارى. وطبعا زواجها بشرط رضاها وموافقتها.

إذن على مستوى المُثل العليا، كان العلم بمفهومه الواسع الشامل فى الإسلام حقا لكل رجل وامرأة، بل هو واجب عليهما، وواجب على المجتمع تجاههما معا، ولا فرق بين الجنسين فى ذلك سواء كان ذلك حقا لهما أو واجبا عليهما. أما على مستوى التنفيذ الفعلى فى الواقع عبر القرون الماضية فقد كانت ثمة فجوة بين النظر والتطبيق.

واليوم حدث تغير كبير، حيث تم فتح أغلب المسارات أمام المرأة فى التعليم والبحث العلمى، واستطاعت إثبات جدارتها، ووصلت النسب المئوية إلى درجات مرتفعة. ومع ذلك لا تزال هناك مساحات يسيطر عليها التمييز فى عقول بعض الناس وفى عقول بعض المجتمعات وفى عقول أنصار الخطاب الدينى القديم، ولا تزال التصورات الأسطورية ضد المرأة تحتل مساحات مهمة، ومن ثم يجب مواصلة تفكيكها وإزاحتها.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٧»

٢٨ نوفمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن تصديق التصورات الأسطورية التى تشكلت عبر التاريخ، ليس بالأمر الميسور؛ فمن طبيعة الأساطير أنها ترقد فيما وراء البنية التحتية للعقل، حيث تعيش فى العقل الباطن الجمعى والفردى. وتحتاج إلى القيام بحفريات متعمقة فى جذور التصورات، وتحتاج أيضا لعمليات إزاحة عبر زراعة المفاهيم العقلانية، كما تحتاج إلى إعادة بناء المفاهيم العامة التى تدخل فى تكوين رؤية العالم عند الإنسان.

وقد أدت التصورات الأسطورية المسبقة إلى فهم مغلوط لطبيعة الفروق الجسدية بينهما، وربما أيضا الفروق النفسية، وظن الكثيرون أن هذه الفروق يترتب عليها فروق فى القيمة الإنسانية، وأن هذه الفروق تثبت الاعتقاد الأسطورى بأن المرأة نوع أقل قيمة من نوع الرجل! وأنها أضعف منه بإطلاق! والواقع أن بعض هذه الفروق لصالح المرأة؛ وتؤكد قوتها فى بعض الجوانب، مثل الفروق الجسدية فى القدرة على الحمل والإنجاب التى تثبت قوة الجسد الأنثوى وقدرته على الإبداع والتحمل. وعلى الجانب المقابل نجد عند الذكر من الخصائص ما يجعله أقوى فى بعض الوظائف عن الأنثى، مثل الأعمال البدنية الشاقة فى رفع الأثقال سواء أثقال الحديد فى الرياضة أو أثقال العمل فى الحفر والبناء والحرب.

وقس على ذلك العديد من الوظائف الجسدية والعضوية الأخرى. لكن فى النهاية سوف تجد أنها فروق لابد من فهمها فى إطار أنهما مكملان لبعضهما البعض، وهما فى النهاية متكافئان فى القيمة وفى مجموع الوزن النسبى لكل منهما. والأمر بينهما عند المقارنة لا يدخل فى نطاق المساواة الميكانيكية بين النوعين، بل يدخل فى نطاق التكافؤ فى مجموع القيمة. وهذا التكافؤ بينهما مثل التكافؤ بين وجهى العملة الواحدة، أو التكافؤ بين ظاهر القفاز وباطنه، مع أن وجه العملة الأول لا يساوى وجه العملة الآخر فى الشكل، وظاهر القفاز لا يساوى باطنه. لكن لا شك أنه يكافئه فى القيمة، وكل من العملة نفسها، والقفاز نفسه، لا يمكن أن يوجد بدون الجانبين، كما أن أحد الجانبين لا يمكن أن يوجد منفردا عن الآخر.

وتأسيسا على هذا، يمكن أن تنظر إلى بعض الفروق التشريعية فى الإسلام بين الرجل والمرأة. وبطبيعة الحال لا يمكن التوسع فى هذه الفروق مثلما يفعل الخطاب الدينى البشرى القديم. ونجد فى نطاق الفروق الثابتة بيقين من القرآن الكريم والسنة اليقينية، أنها فروق لا تتعلق بالقيمة الإنسانية ولا بمجموع الوزن النسبى لكل منهما، بل تتعلق بطبيعة الفروق الجزئية الجسدية والتكوينية والوظيفية الأخرى، والتى لا تشير على الإطلاق إلى أن أحدهما أدنى من الآخر.

ونضرب على ذلك بعض الأمثلة التشريعية، ومنها بعض التكاليف التعبدية التى تهدف فى المقام الأول والأخير إلى مراعاة المرأة وصيانتها والتخفيف عنها؛ رحمة بها وتقديرًا لظروفها. فالإسلام ﷺ مثلاً يسقط عن المرأة فرض الصلاة أثناء حدوث مانع طبيعى من حيض أو نفاس، كما أنه لا يكلفها بقضائها؛ دفعًا للمشقة؛ لأن الصلاة يكثر تكرارها. وفى رمضان لا يكلفها بالصيام إذا كانت لديها مثل هذا المانع الطبيعى، ويبيح لها إن كانت حاملاً أو مرضعة أن تفطر. بيد أنه يطلب منها قضاء الأيام التى أفطرت فيها بسبب هذه الأحوال؛ فهى أيام معدودات. عن معاذة قالت: سألت عائشة رضى الله عنها، فقلت: ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ قالت: كان يصيبنا ذلك مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة. رواه الجماعة.

وقد قام علماء الفقه والأصول بحصر كامل للأحكام التى تخالف فيها الأنثى الذكر فى الشريعة الإسلامية. لكنهم توسعوا فى ذلك دون نصوص قاطعة الثبوت قاطعة الدلالة من القرآن الكريم أو السنة اليقينية الثبوت. ونكتفى فى هذا السياق ببعض ما هو ثابت ولا تزيد فيه، مثل أن عورتها تخالف عورة الرجل، ولا يجب عليها صلاة الجمعة، ولكن تنعقد بها؛ أى تحسب المرأة من الجماعة التى هى شرط انعقاد الجمعة.. لاحظ هنا أنها عند حضورها ينعقد بها شرط انعقاد الجمعة؛ فهى تحسب فى العدد اللازم فى الانعقاد كشخص كامل الأهلية مثلها مثل الرجل، ولا تخرج من العد، ولا تعد نصفا ولا ربعا! بل تعد واحدا صحيحا كاملا. وتختلف طريقتها فى الإحرام فى الحج عن الرجل، ولا تلبى جهرًا، ولا تنزع المخيط، ولا تحلق، إنما تقصر. وتقدم على الرجال فى النفر من مزدلفة إلى منى، كما أن لها الأولوية على الرجل فى الانصراف من الصلاة فى المسجد؛ فالسيدات أولا.

ومن الفروق التشريعية لصالح المرأة، مسألة النفقة؛ فقد تم إعفاؤها من جميع أعباء الحياة المعيشية، وكلف الرجل أن يتكفل بذلك كله. فما تحتاج إليه المرأة من طعام وشراب ومسكن وخلافه ﷺ أمور واجبة على أبيها أو أخيها أو زوجها بحسب الأحوال. وهذا ثابت بيقين من الكتاب الكريم والسنة اليقينية الثبوت (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى. لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، (الطلاق: ٦، ٧)، (وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا. فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)، (الطلاق: ١، ٢) ، (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا)، (البقرة: ٢٣٣)، (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ. وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، (البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧). وفى حديث حجة الوداع: «اتقوا الله فى النساء... ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

وإذا تتبعت الفروق التشريعية بين الرجل والمرأة، فسوف تجد أنها يمكن فهمها فى إطار مراعاة الطبيعة التكوينية لكل منهما، ومراعاة لطبيعة الأعباء المختلفة بينهما، وحسب توزيع منظومة الواجبات والحقوق بينهما دون أى تمييز فى القيمة الإنسانية الوجودية الواحدة. وسوف تجد أن كل ميزة لأى منهما فى مقابلها عبء، وكل حق فى مقابله واجب. لكن من المؤكد أن الوزن النسبى، بين مجموع واجبات وحقوق المرأة فى مقابل واجبات وحقوق الرجل، متكافئ فى النهاية.

المواطنة والجمهورية الجديدة

٥ ديسمبر ٢٠٢١ م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

استخدم السيد رئيس الجمهورية عبدالفتاح السيسى، مرات عديدة مصطلح الدولة الوطنية بوصفها الركن الركين للجمهورية الجديدة. ومما قاله ويجب التوقف عنده: «إننا نبنى دولة.. هل تعلمون ماذا تعنى الدولة؟».

ولا شك أن الدولة لها دلالات ومعان كثيرة فى العلوم السياسية وفى فلسفة السياسة، واختلفت هذه الدلالات باختلاف العصور وباختلاف الفلاسفة وباختلاف المرجعيات الدينية، لكن لا شك أيضا أن المقصود هنا هو الدولة الوطنية القوية بمفهومها الشامل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا... الخ. والدولة الوطنية تقوم -فيما تقوم- على مفهوم المواطنة. ولعل الأمر يستلزم نوعا من التأسيس الفلسفى لهذا المفهوم، حتى نوضح جانبا من الجوانب التى ربما يقصد إليها بانى الجمهورية الجديدة. إن الدولة الوطنية هى أرقى أشكال الدولة حتى الآن لارتباطها بالقانون الطبيعى، وحماية المقدرات الشخصية والعامة، وحقوق الإنسان، والعقد الاجتماعى، والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. وقد ظهرت قيمة المواطنة وقيمة الدولة الوطنية خاصة عندما ظهرت دعاوى قبل ٣٠ يونيو ترفض فكرة الوطن لكى تبرر لنفسها الخيانة والعمالة لدول أخرى تحت شعارات دينية زائفة ومضللة ما أنزل الله لها من سلطان دينى أو عقلى. ومن هنا تشكل فكرة المواطنة الأساس الركين فى بناء الجمهورية الجديدة، باعتبارها الانتماء إلى الوطن. وهذا هو معنى المواطنة فى شكلها الأكثر اكتمالا فى الفلسفة السياسية المعاصرة؛ حيث يتم اعتبار الانتماء إلى الوطن هو جوهر مفهوم المواطنة.. وهو ليس مجرد انتماء محض، بل انتماء يتمتع فيه المواطن بالعضوية كاملة الأهلية على نحو يتساوى فيه مع الآخرين الذين يعيشون فى الوطن نفسه مساواة كاملة فى الحقوق والواجبات، وأمام القانون، دون تمييز بينهم على أساس اللون أو العرق أو الدين أو الفكر أو الموقف المالى أو الانتماء السياسى. ويحترم كل مواطن المواطن الآخر، كما يتسامح الجميع تجاه بعضهم البعض رغم التنوع والاختلاف بينهم. هذا المعنى هو المقصود، لكن من ناحية أخرى نجد فى فلسفة السياسة أن مفهوم المواطنة مفهوم قد يضيق وقد يتسع، قد يضيق ليقتصر على نخبة وقد يتسع ليشمل عدة نخب، وقد يزداد اتساعا فيشمل كل المنتمين إلى دولة ما أو أمة، وفى أحيان قليلة -لا تتجاوز اليوتوبيات إلا نادرا- ربما يشمل مفهوم المواطنة كل الجنس البشرى فى إطار دولة عالمية قد يكون لها شكل الدولة الواحدة، وقد يكون لها شكل التكوين الفيدرالى الذى يجمع عدة دول فى إطار حكومة عالمية أو عصبة أمم.

لكن لا شك أن مفهوم المواطنة فى حدود الدولة الوطنية هو المفهوم الذى تقوم عليه الدولة بالمعنى المعاصر، وهو المعنى الذى نريد أن نصل إليه فى نهاية التحليل. ومع أن هناك كتابات كثيرة، تناولت مفهوم المواطنة، إلا أنه لا يزال مفهوما إشكاليا تختلف حوله التحليلات الفلسفية، وتتعارض فى شأنه النظريات الاجتماعية، ولم تنته النظرية السياسية إلى رأى أخير يوضح ماهيته، وبالتالى لا تزال تتباين فى تحديد معالمه ومضمونه الأنظمة السياسية عبر العالم، بل عبر أحزاب الدولة الواحدة. ثم إن أغلب البحوث تستغرق فى التعريفات الإجرائية أو الاصطلاحية، رغم أنه مفهوم حى يتحرك فى إطار سيرورة تاريخية مستمرة. وفى كتابنا «فلسفة المواطنة وأسس بناء الدولة الحديثة»الصادر عام ٢٠١٤ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، لم يتم التوقف عند مجرد التعريف الاصطلاحى لمفهوم المواطنة، بل تم تحليل تطوره وسماته ككائن حى له ماض وحاضر ومستقبل، ينشأ وينمو ويتطور، ويتراجع ويتقدم، ويقوى ويضعف، ويتداخل ويتخارج مع مفاهيم أخرى... الخ، فهذه كانت إحدى أهم مهام هذا الكتاب، مع تركيز التحليل عند مرحلة التنوير الأوروبى، دون أى اقتطاع للمفهوم من وضعيته التاريخية، وجذوره، وما آل إليه حتى اللحظة الراهنة. فلا يمكن فهم واقع مرحلة بعينها دون معرفة ماضيها ومستقبلها.

لكن لماذا التوقف الخاص عند عصر التنوير؟

لأنه عصر عصور الفلسفة الغربية، ونقطة تحول فى طريق الإنسانية نحو مفهوم واضح ومحدد للمواطنة. وفى هذا العصر مر المفهوم بمعظم التحولات عبر قرن واحد، على الأقل من الناحية النظرية، وتمخض عن ثورتين من كبرى ثورات الإنسانية اللتين انطلقتا فى قيامهما من مفهوم المواطنة، أى الثورة الأمريكية (١٧٧٦) والثورة الفرنسية ١٧٨٩، وتحولت الإنسانية معهما إلى أفق جديد مؤثر. وكان الأمر يشبه من بعض الجوانب ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣، حيث ثار المواطنون من أجل دولة وطنية جديدة تتجاوز حالة الشرود التى كانت فيها مصر على حافة حرب أهلية مثل تلك الحروب التى حدثت فى العراق وليبيا واليمن وسوريا.

وقد اكتسب المواطن فى آخر القرن الثامن عشر، ومع الثورة الفرنسية، صفاته من الصفات الأربع للثورة الفرنسية على النحو الذى أوضحناه فى كتابنا المشار إليه. مع التأكيد على أنه مع التقدم الكبير الذى حققته الثورتان الفرنسية والأمريكية فى مجال ارتقاء مفهوم المواطنة، وتحققه العملى، إلا أنه ارتقاء لم يصل إلى ذروة اكتمال المواطنة؛ حيث حرمت الثورتان قطاعا من الناس من حق المواطنة. ويستطيع المرء أن يلمس فى عصر التنوير الارتباط العضوى بين المواطنة والحداثة؛ فكل عناصر الحداثة الماثلة فى أعمال طائفة واسعة من فلاسفة وكتاب التنوير؛ مرتبطة نظريا مع مفهوم المواطنة عندهم؛ حيث يعكس هذا المفهوم أسمى ما قدمه هذا العصر من نزعة إنسانية، وتحكيم للعقل، وبلورة لمفهوم حقوق الإنسان، والعقد الاجتماعى، والمجتمع المدنى، وعلاقة المواطن بالدولة وسلطاتها الثلاث.

وفى هذا العصر ارتبطت المواطنة مفهوميا - فى أحيان قليلة- بنزعة عالمية تحلم بإنسانية واحدة فى إطار من التنوع والاختلاف، إنسانية تضع من الوسائل ما يمنع الحروب، ويكرس إنسانية الإنسان فى إطار من المساواة الحقيقية بين كل البشر فى الحقوق والواجبات، دون الإخلال بحق الوطن الدولة وحق الوطن العالم، لاسيما مع وصول هذا العصر إلى ذروته مع الفيلسوف الألمانى كنط (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤).. تلك الذروة النظرية التى لم يكتب لها التحقق العملى حتى الآن. وهكذا فإن مفهوم المواطنة سار فى بعض الأحيان بعيدا عن النزعة العالمية حيث التأكيد على الوطن الدولة، وفى بعض الأحيان التقى مع النزعة العالمية حيث الوطن العالم. وفى حدود تطور الدولة الوطنية المصرية، ومع الدخول فى عصر الجمهورية الجديدة، تظل أرقى حالات المواطنة وأكثرها عقلانية حتى الآن تلك التى تؤكد على الوطن الدولة وتجمع بين المواطنة والدولة حيث الدولة الوطنية هى الأصل والانتماء والولاء والملاذ فى مقابل الفوضى والضياع ومهددات الوجود.

ملاحظة:

حدث خطأ مطبعى فى المقال المنشور الأسبوع الماضى فى السطر الأول.. حيث جاء «تصديقا لتصورات»، والصواب» تصديع» بحرف العين وليس القاف. ومعنى «تصديع» : أى تكسير وتفتيت، تصدّع الجِدارُ ونحوُه: تشقّق.

ضد التصور الأسطورى للمرأة «٢٧»

١٢ديسمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

المفهوم كائن حى، ينشأ وينمو ويتطور، له ماض وحاضر ومستقبل. وقد تأكد لنا هذا المعنى فى المقال السابق. فهل هذا ينطبق على مفهوم الوطن فى تاريخ الأفكار العربية؟

هذا سؤال مهم من عدة جوانب، لعل من أهمها الرد على أصحاب النزعة المضادة للوطنية، أولئك النفر من الذين يتبنون أفكارا عابرة للانتماء الوطنى نحو الانتماء لأيديولوجيات تبرر لنفسها الخيانة الوطنية لصالح فكرة ما، تتقنع بأقنعة دينية زائفة، بينما هى فى حقيقتها الارتماء فى أحضان دول لها تاريخ استعمارى بغيض تحت شعارات خادعة! وهم يزعمون ــ فيما يزعمون ــ أن مفهوم الوطن والمواطنة ليس له أصل فى الإسلام ولا فى تاريخ الأفكار العربية!

ولا شك أن المنابع الصافية من القرآن الكريم والتاريخ النبوى فى جانبه الثابت بيقين، علاوة على تاريخ الكلمات والمصطلحات والمفاهيم، ليس فى صالح أولئك المزيفين للوعى الوطنى والمعادين للدولة الوطنية.

ولنبدأ ببيان أصل تلك الكلمات فى المعاجم العربية ذات الوزن العلمى والتاريخى. ونلاحظ فيها أن تلك الكلمات توجد بها بكثرة وبنوع من التأصيل اللغوى الحامل لمفاهيم واضحة ودالة؛ حيث نلاحظ ورود كلمات: «وطن ــ توطن ــ واطن ــ الوطن ــ موطن...». وعلى سبيل المثال نجد فى لسان العرب لابن منظور أن الوطن فى اللغة العربية: هو المَنْزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحله؛ والجمع أَوْطان. وَطَنَ بالمكان وأَوْطَنَ أَقام. وأَوْطَنَهُ: اتخذه وَطَناً.

يقال: أَوْطَنَ فلانٌ أَرض كذا وكذا أَى اتخذها محلاً ومَسْكَناً يقيم فيها... وأَوطَنْتُ الأَرض ووَطَّنْتُها تَوطِيناً واسْتَوْطَنْتُها: أَى اتخذتها وَطناً، وكذلك الاتِّطانُ، وهو افْتِعال منه. (بتصرف عن: ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ. ج ١٣/ ص ٤٥١).

فالوطن كلمة لها أصل عربى مرتبط بموطن الإنسان ومستقره وانتمائه الجغرافى والإقليمى، بل من الواضح جدا أن علماء المسلمين كانوا على وعى شديد بمفهوم الوطن، وكانوا يحملون انتماء وولاء له، ويظهر ذلك فى احتفائهم فى أسمائهم بالنسبة إلى أوطانهم، سواء بالنسبة إلى هذه الأوطان أو النسبة لمدنها. وعلى سبيل المثال نجد أواخر أسمائهم تنتهى بـ: (المدنى، البغدادى، الدمشقى، السيوطى، العسقلانى، المكى، المغربى، المصرى...إلخ).

ولنقف قليلا عند أسماء بعض العلماء القدماء الذين انتهت سلسلة أسماؤهم بـ (المصري)، ومنهم الذين تعلم عليهم الإمام الذهبى، قال ــ رحمه الله ــ فى «معجم شيوخه الكبير» «١/ ١٣٥» إنه قرأ القراءات السبع على شيخه أبى عبد الله بن جبريل المصرى، قال الحافظ الحسينى فى «ذيل تذكرة الحفاظ، ص٣٦»: «وقد جمع القراءات السبع على الشيخ أبى عبد الله بن جبريل المصرى نزيل دمشق، فقرأ عليه ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب التيسير لأبى عمرو الدانى، وكتاب حرز الأمانى لأبى القاسم الشاطبي».

ومن الملقبين بالمصرى المحدث حيوة بن شريح المصرى، ذكره الذهبى فى (سير أعلام النبلاء ط الحديث، ١/ ٤٠٨). والمحدث يحيى بن أيوب المصرى، (سير أعلام النبلاء، ط الحديث، ٢/ ٢٢٨). والقائمة المذكورة فى سير أعلام النبلاء طويلة جدا، لكن لنذهب إلى مصادر أخرى، مثل الأعلام للزركلى، حيث نجد منهم: ذُو النُّون المِصْرى المتوفى ٢٤٥ هـ، واسمه ثوبان بن إبراهيم الإخميميّ المصرى، أبو الفَيّاض، أو أبو الفيض: أحد الزهاد العباد المشهورين. نوبيّ الأصل. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر فى (ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم. واتهمه المتوكل العباسى بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه. ثم أطلقه، فعاد إلى مصر. وتوفى بجيزتها. (الأعلام للزركلى، ٢/ ١٠٢).

ومن الملقبين بالمصري: إبراهيم بن منصور بن المسلّم المصرى، أبو إسحاق (٥١٠ ــ ٥٩٦ هـ = ١١١٦ ــ ١٢٠٠ م)، وكان شيخ الشافعية بمصر. مولده ووفاته فيها. رحل إلى بغداد فأقام مدة كان يعرف فيها بالمصريّ، له تصانيف منها (شرح المهذب للشيرازي) عشرة أجزاء. انظر: (الأعلام للزركلى، ١/ ٧٤).

ومنهم: على بن محمد المصرى، علاء الدين: فقيه واعظ. له رسائل، منها «التعليق على كشف القناع عن ألفاظ شبهة السماع ــ خ» و«الأجوبة الغالية عن المسائل الخافية ــ خ» و«مشكاة الأنوار فى لطائف الأخبار ــ خ» و«مشارق الأنوار فى فضل الورع ــ خ». (الأعلام للزركلى، ٥/ ١٥).

والقوائم تطول، ونكتفى بهذه الأمثلة لبيان وعى القدماء وإيمانهم بالوطن واحتفائهم به فى أسمائهم. لكن للأسف هناك من المغيبين الذين زرعتهم القوى الإمبريالية العالمية، لكى يؤسسوا الجماعات والتيارات التى تحمل مفاهيم مغالطة ضد الانتماء الوطنى، رغبة فى التأصيل للخيانة، ونشر أفكار تحدث انقساما وفرقة وتزعزع الانتماء الوطنى لصالح أفكار متطرفة تدعو للجهاد ضد الوطن، بحجة الانتماء لفكرة ضالة عابرة لمفهوم الوطن.

وينسى أولئك النفر أن كثيرا من الأنبياء لم يستطيعوا الغياب عن أوطانهم، فهذا موسى عليه السلام يعود إلى مصر بعد غياب سنوات، وهذا المسيح عليه السلام خرج من وطنه طفلا ثم عاد إليه، وهذا محمد عليه الصلاة والسلام يترك مكة مضطرا، ثم يعود إليها منصورا منتصرا.

وفى الحَديث يقولُ عبدُ اللهِ بنُ عَديّ بنِ حمراءَ رَضِى اللهُ عنه: «رأيتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم واقفًا على الحَزوَرةِ (والحَزْوَرةُ: مرتفعٌ يُقابِلُ المسعَى مِن جِهَةِ المشرِقِ، كان سُوقًا مِن أسواقِ مكّةَ)، فقال النّبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلّم مُخاطِبًا مكّةَ: «واللَّهِ إنّكِ لخيرُ أرضِ اللهِ وأحبُّ أرضِ اللهِ إلَيّ ولولا أن أَهْلَكِ أخرَجونى منكِ ما خَرجتُ». رواه الترمذى فى سننه، وابن عبد البر فى الاستذكار (٤٥١/٢). وحكم المحدث: حسن صحيح ثابت، ولم يأت من وجه صحيح شيء يعارضه لا فى القرآن الكريم ولا فى السنة الثابتة.

الرئيس والخطاب الدينى «١»

١٩ ديسمبر ٢٠٢١ م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن مقولة أثبتت التجارب التاريخية صحتها. وفى عصرنا جاء رئيس مصر برؤية إصلاحية تحمل طموحات لا محدودة من أجل بناء دولة قوية تمثل محور ارتكاز فى الدوائر الإقليمية، وتمثل رقما مؤثرا ولا يستهان به فى المعادلة الدولية.

وربما تكون عباراتى غير معبرة عن حجم تلك الطموحات الكبيرة. لكن فى كل الأحوال واجهت وتواجه تلك الطموحات تحديات كبرى، خاصة فى بدايات استرداد مصر من الاختطاف ومن التقسيم ومن الضياع، وإحباط حرب أهلية مدعومة من بعض القوى الخارجية لتدمير مصر وأهلها. وكان أكبر تلك التحديات ذلك الإرهاب العابر للحدود والدول والقارات والذى يجد له سندا وظهيرا من الطابور الخامس فى الداخل. وكانت مصر على نهاية الطريق السريع للدخول فى حالة العراق وسوريا واليمن وليبيا التى تهدمت بنيتها وتفككت مؤسساتها، وتشرد ملايين من أهلها فى البلدان والمخيمات، وتعرضت ملايين أخرى للقتل، وفقدت ملايين من أهلها ثرواتها ومنازلها وأسرها، ونشأت أجيالها الجديدة فى المخيمات ترتوى من الغضب والاحتقان والكراهية، ذلك الثالوث الذى يغذى الإرهاب وينشئ أجيالا جديدة من الإرهابيين ليكون نارا وجحيما على بلدانهم وعلى العالم كله.

وفى كل تلك الظروف المرة كان الخطاب الدينى التقليدى يمثل منابع فياضة للإرهاب فى المحيط الدولى والمحيط الإقليمى والمحيط المحلى، وكان للإرهاب فى محيطاته الثلاثة محاولته الكبرى الآثمة لاختطاف مصر ومحاولة إضاعتها وتمزيق مؤسساتها وأركانها والقذف بأهلها إلى الفقر والموت والتشريد والقضاء على أجيالها والعودة بها إلى العصر البدائى قبل نشوء الدولة فى فجر التاريخ.

وكان الرأى وكانت الرؤية من رئيس مصر، أن المواجهة الأمنية للإرهاب لابد أن تسير جنبا إلى جنب مع عملية التنمية الشاملة، ومع تصويب الخطاب الديني؛ من أجل استرداد الدولة الوطنية، لا للعودة إلى الماضى ولكن لإعادة بناء دولة قوية على أسس جديدة راسخة.

هكذا كانت الرؤية ثلاثية الأبعاد: المواجهة الأمنية للإرهاب، والتنمية الشاملة، وتصويب الخطاب الدينى. ولا شك أن أى بعد منها لا يكفى وحده، بل لابد من تضافر الأبعاد الثلاثة، وخاصة تصويب الخطاب الديني؛ حيث إن الإرهاب لا يمكن أن يُقتلع من جذوره دون تجفيف منابعه التى تعشش فى عقل الخطاب الدينى التقليدى القائم على طرق رجعية فى التفكير والاستنتاج وتكوين الأحكام.ومن الملاحظ أن مصطلح «تصويب الخطاب الديني» هو المصطلح الذى يستخدمه الرئيس وربما يفضله على غيره من المصطلحات.

وإدراكا من جامعة القاهرة لأهمية «تصويب الخطاب الديني»، كانت مشاريعها المتعددة مثل مشروع تأسيس خطاب دينى جديد، ومشروع التفكير النقدى، ومشروع تطوير الوعى. فليست جامعة القاهرة بمعزل عن الهموم الوطنية فى برج عاجى من العلوم النظرية؛ فلا أهمية لعلوم ولا لأبحاث لا تصب فى قلب قضايا الوطن وفى المقدمة من مواجهة تحدياته.

وقد رصد فريق التحرير فى مجلة جامعة القاهرة برئاسة تحرير أ.د. محمود خليل، فى العدد الثالث والثلاثين الصادر فى أبريل٢٠٢٠ م، ١٧ رسالة دالة للرئيس عبد الفتاح السيسى فى «تصويب الخطاب الديني»؛ حيث أكد خلال ١٧ مناسبة مختلفة من الرابع والعشرين من شهر يوليو لعام ٢٠١٤ وحتى نهاية شهر يناير لعام ٢٠٢٠، على ضرورة تجديد الخطاب الدينى دون المساس بالثوابت، وبطبيعة الحال للرئيس رسائل أخرى كثيرة ودالة فى المناسبات اللاحقة، وفى مداخلاته فى وسائل الإعلام المختلفة. وفى كل تلك الرسائل أوضح أن التراخى عن الاهتمام بهذا الأمر من شأنه ترك الساحة لأدعياء العلم ليخطفوا عقول الشباب، ونشر الأفكار والمفاهيم المغلوطة التى تروج للتطرف والعنف.. وفى ذلك التقرير المهم لمجلة الجامعة تم رصد أبرز الرسائل التى وجهها الرئيس تجاه هذه القضية، مثل:

فى يوليو ٢٠١٤، قال الرئيس عبد الفتاح السيسى، على هامش كلمته التى ألقاها فى قاعة المؤتمرات بمدينة نصر للاحتفال بليلة القدر نهاية شهر يوليو لعام ٢٠١٤، «سأتحدث إليكم كإنسان مسلم مهموم بدينه ومظاهر الإساءة إليه، مشددا على ضرورة أن يكون الاحتفال متضمنا فهما حقيقيا لكتاب الله بما يتناسب مع العصر وليس حفظه فقط. واقترح الرئيس تنظيم مسابقات ترسخ لفكرة الأخلاق، وتطبيق المنهج القرآنى فى سلوكيات المجتمع، عبر تكريم أفضل مدرس أو أفضل مسلسل يعالج مكارم الأخلاق.. بالحسنى وتصحيح الأفكار، أو أفضل مذيع فى الراديو يتسم بالأخلاق، أو أفضل صحفى يراعى الأخلاقيات فى سلوكه العام». وتابع خلال الاحتفال بليلة القدر، «هناك من يقتلنا.. على الرغم من أن الإسلام هو دين الصدق والإتقان والسماحة»، متسائلا: هل لدينا الصدق والإتقان والتسامح؟ الخطاب الدينى يتطور بالتطور الإنسانى مع التسليم بثوابت الدين»، مطالبا الأزهر بتقديم خطاب دينى سمح وسطى يعبر عن الإسلام والمسلمين.

وفى يناير ٢٠١٥، أكد الرئيس خلال احتفال وزارة الأوقاف والأزهر بالمولد النبوى الشريف بداية شهر يناير لعام ٢٠١٥،على أهمية تجديد الخطاب الدينى والدعوة بالحسنى وتصحيح الأفكار والمفاهيم التى ليست من ثوابت الدين، مطالبا بثورة دينية لدعم خلق الرسول صلى الله عليه وسلم، وتغيير المفاهيم الخطأ، وتصحيح المفاهيم والأفكار التى ليست من ثوابت الدين.

وفى ١٤ يوليو ٢٠١٥، ألقى الرئيس خطابا بمناسبة الاحتفال بليلة القدر، أكد فيه ضرورة «تصويب الخطاب الديني»وإظهار الصورة الحقيقية للإسلام، «فالدين معاملة» ولابد من نشر قيم السلام والمحبة ودفع السيئة بالحسنة وقبول الآخر.

ونلاحظ فى تلك الرسائل الثلاث المذكورة حتى الآن أعلاه مجموعة من الملاحظات، لعل من أهمها:

- إنسان مسلم مهموم بدينه ومظاهر الإساءة إليه.
- الدعوة لفهم حقيقى لكتاب الله بما يتناسب مع العصر وليس حفظه فقط.
- ترسخ فكرة الأخلاق.
- تطبيق المنهج القرآنى فى سلوكيات المجتمع.
- الإسلام هو دين الصدق والإتقان والسماحة.
- الخطاب الدينى يتطور بالتطور الإنسانى.
- التسليم بثوابت الدين.
- الدعوة بالحسنى وتصحيح الأفكار والمفاهيم التى ليست من ثوابت الدين.
- المطالبة بثورة دينية لدعم خلق الرسول صلى الله عليه وسلم.
- تأكيد أن الدين معاملة.
- نشر قيم السلام والمحبة ودفع السيئة بالحسنة وقبول الآخر.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى لأستعرض سائر المفاهيم التى أكدها الرئيس فى رسائله الأخرى عن «تصويب الخطاب الديني» بوصفه محورا أصيلا فى مواجهة التحديات الكبرى، وركنا ركينا فى بناء مصر القوية.

الرئيس والخطاب الدينى «٢»

٢٦ ديسمبر ٢٠٢١م بجريدة الأهرام

د. محمد الخشت

فى المقال السابق أوردنا ثلاثا من الرسائل الدالة لرئيس مصر عبد الفتاح السيسى فى «تصويب الخطاب الديني»؛ واستخلصنا منها ١١ دلالة. واليوم نواصل استعراض مجموعة أخرى من الرسائل واستخلاص الدلالات المهمة منها.

أكد الرئيس السيسى خلال كلمته بمنتدى دافوس الاقتصادى فى نهاية ٢٢ يناير لعام ٢٠١٥، أن المعركة واحدة، وأن الإرهاب نفسه يحاربنا لفرض رؤيته؛ لأنه يرى فينا جميعا نقيضه دون تفرقة على أساس العرق أو الديانة. وقد حذر الرئيس من استغلال أدوات التواصل الاجتماعى وشبكة المعلومات لنشر دعوات الكراهية والاستقطاب للبعض بدعاوى دينية مغلوطة تستغل حسن نوايا وبعض العناصر المحبطة. وقال: «إنه يتعين علينا أيضا كمسلمين أن نصلح من أنفسنا، وأن نراجع ذاتنا لكيلا نسمح لقلة بتشويه تاريخنا وبالإساءة إلى حاضرنا وتهديد مستقبلنا، بناء على فهم خاطئ وانطلاقا من تفسير قاصر». وأكد على ضرورة «وضع تشريعات وقوانين تترجم العقد الاجتماعى الذى تضمنه الدستور، بما يضمن حصول الأفراد على حقوقهم وأدائهم لواجباتهم ويوازن بين احترام حرياتهم وبين المسئولية التى يتحملونها فى ظل سيادة القانون وتساوى الجميع أمامه بغض النظر عن الجنس أو العقيدة».

وشدد الرئيس السيسى خلال زيارته للكلية الحربية فى ١٧ أبريل ٢٠١٥، على أن الخطاب الدينى وطريقة تناوله فى وسائل الإعلام فى ذلك الوقت ليس فى مصلحة الدين والوطن، كما أكد أهمية التعامل بحذر ودقة ووعى فى مسألة تجديد الخطاب الدينى «لأنها مسئولية أمام الله والوطن». وقال: «نحن نبنى ونعمر ولا نخرب أو ندمر، والله شاهد على أعمالنا، ونستطيع باليقظة والحذر أن نمنع كثيرا مما يؤلمنا ويؤذينا». وأشار إلى أن تصويب الخطاب الدينى قضية مهمة لن يتم حلها فى وقت قصير، مضيفا «الدين هو أغلى ما يملكه الفرد، ويجب أن يتم تناول الأمر بدقة، وعلى مؤسسات الدولة أن تعمل بتجرد». وأكد الرئيس ضرورة أن يترسخ فى أذهان المصريين رفض الفكر المتطرف والعمل على مواجهته، مشددا على أن من يرفع السلاح ضد المصريين ليس له مكان ولن يواجه إلا بالسلاح، فالعنف لا يواجه إلا بالعنف، وتابع «لن ينصر دين أو يرفع دين بسفك الدماء، وهذه الأفكار ليس لها مكان فى وطننا، والدين لايقام إلا بالرحمة».

ودعا الرئيس فى خطابه بمناسبة المولد النبوى بمركز الأزهر للمؤتمرات فى ٢٢ ديسمبر ٢٠١٥، إلى استمرار جهود تصويب الخطاب الدينى، قائلا: «أقول لعلمائنا ودعاتنا الأجلاء.. استمروا بعزم لا يلين فى تصويب الخطاب الدينى.. أعيدوه إلى جادة الصواب.. وكونوا من بين من قال فيهم رسول الله: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها».

وأضاف فى حديثه للعلماء والدعاة: «فندوا الأفكار الخبيثة والتفاسير الملتوية.. بددوا حيرة العقول واضطراب النفوس.. أبدلوا كل ذلك بيقين راسخ بأن التسامح لا يتعارض مع التدين.. وبأن قبول الآخر لا يتنافى مع الإيمان.. وبأن خير الناس أنفعهم للناس كافة وعلى عمومهم وليس للمسلمين فقط.. اغرسوا محبة الله فى القلوب حتى تمتلئ بها.. فلا يتبقى فيها مكان لضغينة ولا موضع لكراهية.. أفهموا الجميع أن الله لو أراد لجعل الناس أمة واحدة.. وما ذلك على الله بعزيز».

وأكد الرئيس على أهمية التصويب والبعد عن الجمود، فى ٢٩ يونيو ٢٠١٦بمناسبة الاحتفال بليلة القدر؛ حيث قال: «واصلوا جهودكم ومساعيكم المحمودة لنشر صحيح الدين وتصويب الخطاب الدينى والتعريف بجوهر الإسلام الحقيقى الذى يحض على التسامح والرحمة وقبول الآخر وإعمال العقل والذى يتنافى تماماً مع دعاوى القتل والتدمير والتخريب والطاعة العمياء التى تُغَيِّب العقل الذى هو أسمى ما ميز به الخالق سبحانه وتعالى الإنسان عن سائر مخلوقاته.. ونبهوا عامة المسلمين إلى أن «الدين المعاملة»، وبأن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده». وأكد أن العالم الإسلامى يمر «بمنعطف خطير ويواجه تحديات غير مسبوقة تستهدف وجوده وشعوبه.. وهو الأمر الذى يستلزم منا جميعا تضافر جهودنا وطرح كافة الخلافات جانبا.. فأى طرف يريد تحقيق مصلحة محدودة أو ينتصر لأى نوع من أنواع التمييز على أسس مذهبية أو عرقية سيخسر كل شيء ولن يجد فى نهاية المطاف وطناً من الأساس ليتنازع فيه على مصلحة يحققها أو خير يستأثر به.. إنها دعوة خالصة من القلب إلى شعوب الدول العربية والإسلامية التى تشهد أزمات وتعانى من ويلات الإرهاب.. ليكونوا على قلب رجل واحد.. ويقفوا صفاً واحداً.. ويكونوا يداً واحدة تذود وتدافع.. تبنى وتعمر.. وتنشد الخير والسلام للجميع.. فبذلك فقط تنجو الأوطان وترتفع راياتها وتتبوأ مكانتها اللائقة بين الأمم.. ولنتذكر دائماً أن أمتنا هى خير أمة أُخرجت للناس بالعمل الصالح والإيمان وليس بالتناحر والخلاف».

كما أبان الرئيس فى لقاء مع مجموعة من الدارسين بالبرنامج الرئاسى فى ١٤ يوليو ٢٠١٦، أن مسئولية تجديد الخطاب الدينى مشتركة بين الدولة والمجتمع، وأكد على أن مصر سوف تقود تغيير الخطاب الدينى فى العالم. وقال: «لقد خاطبت المؤسسات الدينية للتصدى لهذا الملف وتحمل مسئوليتها، ولكن علينا أن ندرك أن العمل على تجديد الخطاب الدينى يتم من خلال جهود متكاملة».

ومن هذه المجموعة من الرسائل الخمس، يمكن استخلاص مجموعة من الدلالات، على النحو التالي:

١ ـ المعركة واحدة فى العالم كله مع الإرهاب نفسه.

٢ ـ الإرهاب ينشر دعوات الكراهية والاستقطاب للبعض بدعاوى دينية مغلوطة تستغل حسن نوايا وبعض العناصر المحبطة.

٣ ـ يتعين علينا أيضا كمسلمين أن نصلح من أنفسنا وأن نراجع ذاتنا.

٤ ـ الخطاب الدينى الإرهابى يعتمد على فهم خاطئ وينطلق من تفسير قاصر.

٥ ـ تساوى الجميع أمام القانون بغض النظر عن الجنس أو العقيدة.

٦ ـ الخطاب الدينى وطريقة تناوله فى وسائل الإعلام فى ذلك الوقت ليس فى مصلحة الدين والوطن.

٧ ـ تصويب الخطاب الدينى قضية مهمة لن يتم حلها فى وقت قصير.

٨ ـ العنف لا يواجه إلا بالعنف.

٩ ـ على العلماء الاستمرار بعزم لا يلين فى تصويب الخطاب الدينى.

١٠ ـ ضرورة تفنيد الأفكار الخبيثة والتفاسير الملتوية.

١١ ـ من مهام تصويب الخطاب الدينى التعريف بجوهر الإسلام الحقيقى الذى يحض على التسامح والرحمة وقبول الآخر وإعمال العقل.

١٢ ـ المسلم من سلم الناس من لسانه ويده.

١٣ ـ ترجع خيرية الأمة التى أُخرجت للناس إلى العمل الصالح والإيمان وليس إلى التناحر والخلاف.

١٤ ـ مصر سوف تقود تغيير الخطاب الدينى فى العالم.

١٥ ـ مسئولية تجديد الخطاب الدينى مشتركة بين الدولة والمجتمع، ومن خلال جهود متكاملة وليس من خلال طرف واحد.

تلك ١٥ دلالة مستخلصة من الرسائل المذكورة أعلاه، وإذا أضفناها إلى ١١ دلالة السابقة فى المقال الماضى يكون أمامنا ٢٦ دلالة تؤكد وجود رؤية واضحة المعالم فى خريطة عمل «تصويب الخطاب الديني» التى تعمل عليها القيادة السياسية المصرية.